محمد رسول الله

صلى الله عليه وسلم

منهج ورسالة - بحث وتحقيق

الجزء السابع

تأليــف:

فضيلة الشيخ / محمد الصادق إبراهيم عرجون

عميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر سابقًا

أبيض

بسم الله الرحمن الرحيم

السُّبَّق إلى الإيمان

ومن الطبيعي أن تكون طليعة هؤلاء السابقين زوجة النبي ﷺ الوفية الأمينة أعقل نساء العالمين السيدة خديجة رضي الله عنها وأرضاها، التي كانت على أكمل المعرفة ببشائر نبوته ﷺ، بل كانت متطلِّعة إلى اصطفائه نبيًا ورسولًا، حتى اختاره الله تعالى لنبوته ورسالته رحمة للعالمين.

خديجة أسبق السبق إلى الإسلام:

وقد أجمع أهل العلم من أئمة الإسلام على أن خديجة رضي الله عنها كانت أول البشر قاطبة إيمانًا بالله ورسوله، يقول ابن الأثير: لم يتقدمها رجل ولا امرأة بإجماع المسلمين. ويقول ابن إسحاق: كانت خديجة أول من آمنت بالله ورسوله، وصدقت ما جاء من عند الله عز وجل، وآزرت النبي ﷺ على أمره، فخفّف الله بذلك عن رسوله، فكان لا يسمع شيئًا يكرهه من ردٍّ عليه، وتكذيب له فيحزنه ذلك، إلا فرَّج الله عنه بها إذا رجع إليها تثبته، وتخفف عنه وتصدقه، وتهوِّن عليه أمر الناس.

ثم قَفَّى خديجة في السبق إلى حظيرة الإيمان برسالة محمد ﷺ ربيب النبوة، الناشئ في مهد أكرم المكارم، علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه.

علي بن أبي طالب كان ثاني اثنين في السبق إلى الإسلام:

آمن في سن الصبا قبل أن يبلغ الحلم، فشبّ معه الإيمان حتى خالط مشاعره ووجدانه وملأ قلبه، وأفعم بالنور روحه، وكانت العناية الربانية قد ساقته إلى حجر رسول الله ﷺ.

يقول ابن إسحاق: وكان من أنعُم الله عليه أنه كان في حجر رسول الله ﷺ قبل الإسلام، وذلك أن قريشًا أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثيرة فقال رسول الله ﷺ للعباس عمه ـ وكان من أيسر بني هاشم ـ: «يا عباس إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلِق بنا إليه، فلنخفف من عياله، آخذ من بنيه رجلًا، وتأخذ أنت رجلًا، فنكفيهما عنه» قال العباس: نعم، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب، فقالا: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال أبو طالب: إذا تركتما لي عقيلًا فاصنعا ما شئتما، فأخذ رسول الله ﷺ عليًا فضمه إليه، وأخذ العباس جعفرًا فضمه إليه، فلم يزل عليّ مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله نبيًا، فاتبعه عليّ وآمن به وصدقه، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم، واستغنى عنه.

وفي حديث عفيف الكندي أخي الأشعث بن قيس لأمه، وابن عمه أنه قال: كان العباس بن عبد المطلب لي صديقًا، وكان يختلف إلى اليمن، يشتري العطر ويبيعه أيام الموسم، فبينا أنا عند العباس بمنى فأتاه رجل مجتمع، فتوضأ فأسبغ الوضوء، ثم

قــام يصلي، فخرجت امرأة فتوضأت، ثــم قامت تصلي، ثم خرج غــلام قد راهق فتوضــأ ثم قام إلى جنبه يصلــي، فقلت: ويحك يا عباس، ما هذا الدين؟! قال: هذا دين محمد بن عبد الله ابن أخي، يزعــم أن الله بعثه رســولًا، وهــذا ابن أخي علّي بــن أبي طالب قد تابعــه على دينه، وهذه امرأته خديجة قــد تابعته على دينه، فقال عفيف بعد أن أسلم ورسخ في الإسلام، يا ليتني كنت رابعًا.

زيد بن حارثة الحِبّ كان ثالثَ ثلاثةٍ في السبق إلى الإسلام:

ثم كان ثالث أسبق السابقين إلى ساحة الهداية حِبُّ رسول الله ﷺ ومولاه زيدُ بن حارثة الذي أفرده الله بأشــرف الشرف، فذكــره في القــرآن الكريم باســمه، ممتنًا عليــه بإنعامه عليه بنعمة التوفيق إلى الإيمان في طليعة أســبق السابقين، وممتنا عليه بإنعام رسوله ﷺ بالحرية والولاية

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾

(الأحزاب: ٣٧)

قال ابن عبد البر: روي عنه عليه الصلاة والســلام أنه قال: «أحب الناس إليّ من أنعم الله عليه وأنعمت عليه».

وزيــد الحب مــن صميم العرب، وعُليــا قبائلهم، وقد ذكر أبو عمر ابن عبد البر في الاســتيعاب نســبه مــن جهة أبيه عن ابن الكلبي وغيره في تفصيل وإســهاب حتى ألحقه بيعرب بن قحطان، وذكر نســبه من جهة أمه، وهي سعدى بنت ثعلبة من بني معن، وينتهي نسبها إلى طيئ.

ثـم روى أبو عمر عـن ابن عباس وجميل بن يزيد الكلبي قال: خرجتْ سعدى بنت ثعلبة أم زيد بن حارثة ـ وهي امرأة من طيئ ـ تـزور قومهـا وزيد معها، فأغـارت خيل لبني القين بن جسـر في الجاهليـة، فمروا علـى أبيات بني معـن رهط أم زيـد، فاحتملوا زيدًا وهو يومئذ غلام يفعة فوافوا به سـوق عكاظ فعرضوه للبيع، فاشـتراه منهـم حكيم بن حـزام بـن خويلد لعمتـه خديجة بنت خويلد بأربع مئة درهم، فلما تزوجها رسول الله ﷺ وهبته له.

وقد حزن عليه أبوه وقومه حزنًا جعلهم يضربون في الأرض بحثًا عنه، وكان ينشد في التفجع عليه الشعر، يبكي به غيبته التي لا يعرف لها نهاية ولا يعرف لابنه فيها مستقرًا أو مقامًا.

وقد روى أبو عمر وغيره من أشهر شعر التفجع عليه قوله:

بـكـيـت عـلـى زيـد ولـم أدر مـا فـعـل
أحـي يُـرَجَّـى أم أتـى دونـه الأجـل
فـوالله مـا أدري وإن كـنـت سـائـلًا
أغـالـك سـهـلُ الأرض أم غـالـك الـجـبـل
فـيـالـيـت شـعـري هـل لـك الـدهـر رجـعـة
فـحـسـبـي مـن الـدنـيـا رجـوعُـك لـي بَـجَـل[1]
تـذكـرنـيـه الـشـمـس عـنـد طـلـوعـهـا
وتـعـرض ذكـراه إذا قـارب الـطـفـل[2]

(١) بَجَل: حسب. (المجلة)
(٢) الطفَل إقبال الليل والظلمة. (المجلة)

وإن هبت الأرواح هيجن ذكره
فياطول ما حزني عليه ويا وَجَل
سأُعمل نَصَّ العيس في الأرض جاهدًا
ولا أسأم التطْوَافَ أو تسأم الإبل[٣]
حياتي أو تأتي عليَّ منيتي
وكل امرئ فانٍ وإن غرَّه الأمل
سأوصي به قيسًا وعمرًا كليهما
وأوصي يزيد ثم أوصي به جبل

وهذه الأسماء في البيت الأخير أسماء إخوة لزيد رضي الله عنه، قال ابن حجر في الإصابة: يعني بقيس وعمرو أخويه، وبيزيد أخا زيد لأمه، وهو يزيد بن كعب بن شراحيل، وبجبل ولده الأكبر، وهو أيضًا أخو زيد كما صرح به الحافظ ابن عبد البر في قوله: يعني جبلة بن حارثة أخا زيد، وكان أكبر منه.

ولما حضر موسم الحج قدم ناس من قومه من كلب حجاجًا فرأوا زيدًا فعرفهم وعرفوه، فأراد أن يكفكف دموع أبيه وقومه ويخفف من لهفتهم عليه ببعث الطمأنينة إلى قلوبهم، وإعلامهم بحياته وسلامته وسعادته حيث يقيم في أرغد مقام، فقال للقوم الذين عرفوه وعرفهم: أبلغوا أهلي هذه الأبيات فإني أعلم أنهم قد جزعوا عليّ، فقال:

---

(٣) النصُّ السير السريع. والعيس الإبل. (المجلة)

أحن إلى قومي وإن كنت نائيا
فإني قطين البيت عند المشاعر
فكفوا من الوجه الذي قد شجاكم
ولا تُعْمِلوا في الأرض نَصَّ الأباعر
فإني بحمد الله في خير أسرة
كرام معد كابرًا عن كابر

فانطلق الكلبيون فأعلموا أباه ووصفوا له موضعه، وعند من هو، فخرج أبوه حارثة وعمه كعب ابنا شراحيل لفدائه، وقدما مكة فسألا عن النبي ﷺ، فقيل: هو في المسجد، فدخلا عليه، فقالا: يا ابن عبد المطلب، يا ابن هاشم، يا ابن سيد قومه، أنتم أهل حرم الله وجيرانه، تفكون العاني، وتطعمون الأسير، جئناك في ابننا عندك، فامنن علينا، وأحسن إلينا في فدائه، فإنا سنرفع لك، قال النبي ﷺ: «من هو؟» قالا: زيد بن حارثة، فقال ﷺ لهما: «أوغير ذلك؟» قالا: ما هو؟ قال ﷺ: «أدْعوه فأُخيره، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحدًا» قالا: أحسنت وزدتنا على النصف، فدعاه النبي ﷺ فقال له: «هل تعرف هؤلاء؟» قال زيد: نعم، هذا أبي، وهذا عمي، قال النبي ﷺ: «فأنا مَن قد علمت، ورأيت صحبتي لك، فاخترني أو اخترهما» قال زيد: ما أنا بالذي أختار عليك أحدًا، أنت مني بمكان الأب والعم، فقال أبوه حارثة وعمه كعب: ويحك يا زيد أتختار العبودية على الحرية، وعلى أبيك

وعمك وأهل بيتك؟ قال زيد: نعم، إني قد رأيت من هذا الرجل شيئًا، ما أنا بالذي أختار عليه أحدًا أبدًا، فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ أخرجه إلى الحِجر فقال: «يا من حضر، اشهدوا أن زيدًا ابني، يرثني وأرثه».

فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما، فانصرفا، ودعي زيد بن محمد، حتى جاء الإِسلام فنزلت

﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ ﴾ (الأحزاب: ٥)

فدعي يومئذ زيد بن حارثة. قال أبو عمر بن عبد البر: وذكر معمر في جامعه عن الزهري قال: ما علمنا أحدًا أسلم قبل زيد بن حارثة، وقال عبد الرزاق: وما أعلم أحدًا ذكره غير الزهري، قال أبو عمر: وقد روي عن الزهري من وجوه أن أول من أسلم خديجة، وقال الحافظ ابن حجر في الإِصابة: يُرد على قول عبد الرزاق دعواه أن القول بعدم سبق أحد إلى الإِسلام زيد بن حارثة لم يعلم أن أحدًا ذكره غير الزهري. قلت: قد ذكره الواقدي بإِسناد له عن سليمان بن يسار، جازمًا بذلك، وقاله زائدة أيضًا.

وعن محمد بن أسامة بن زيد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة: «يا زيد أنت مولاي، ومني وإليّ، وأحب الناس إليّ» أخرجه ابن سعد بإِسناد حسن.

سَبْقُ أولاده ﷺ إلى الإسلام لا يحتاج إلى نص:

ولم يذكر العلماء في هذا الصدد أسبقية أولاده الأطهار ﷺ إلى الإِيمان برسالته والتصديق بدعوته؛ لأن أبناءه الذكور: القاسم،

وعبد الله الملقب بالطيب والطاهر، وإبراهيم ابنه ﷺ من السيدة مارية بنت شمعون المصرية ـ ماتوا جميعًا في سن الطفولة.

وأما بناته ﷺ الطاهرات عليهنّ السلام: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، فكلهن أدركن الإسلام وأسلمن، وكن مع أمهنَّ سيدة نساء العالمين السيدة خديجة في طليعة أسبق السابقين والسابقات إلى ساحة الإيمان به ﷺ نبيًا ورسولاً.

قال الزرقاني في شرح المواهب: ولم يذكر بناته ﷺ ـ أي في السابقين ـ لأنه لا شك في تمسكهنَّ قبل البعثة بهديه وسيرته.

وقد روى ابن إسحاق عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: لما أكرم الله نبيه بالنبوة أسلمت خديجة وبناته، وفي رواية عنها قالت: أسلمت رقية حين أسلمت أمها خديجة، وبايعت حين بايع النساء، وأسلمت أم كلثوم حين أسلمت أخواتها وبايعت معهنَّ.

أما فاطمة رضي الله عنها فقد ولدت في أصح الروايات بعد البعثة بقليل، ونشأت على الإسلام وأتقى التقى، قال الزرقاني: والحاصل أنه لا يحتاج للنص على سبقهنَّ إلى الإسلام؛ لأنه معلوم، وهو يقصد بهذا إلى أن ذلك نتيجة لازمة لزومًا قطعيًا لنشأتهنَّ بين أحضان أصدق وأكرم أبوة، وأفضل وأحنى أمومة، يأخذن عن أبيهنَّ أكرم المكارم، وعن أمهن حصائل العقل الذي لا يوزن به عقل امرأة في السابقين ولا في اللاحقين.

فهن عليهنَّ السلام في قرن مع أمهنَّ السيدة خديجة،

ينظمهنَّ معها عقد أسبق السابقين والسابقات إلى الإسلام، والتصديق برسالة أبيهنَّ سيد الخلق ﷺ، الذي كان أبًا قبل أن يكون رسولًا، وقد كانت مكارم أخلاقه، وعظيم شهرته بها ورفيع صفاته التي تميز بها عن سائر بيئته وقومه بين أيديهن، يرينها رأي البصر والبصيرة، ويسمعن أحاديث الناس عنها، والولد على نهج أبيه وأمه ينشأ.

ولعل عدم ذكرهنَّ عليهنَّ السلام في السبق إلى الإسلام كان أثرًا من آثار الجو العام للبيئة التي بزغت فيها شمس الإسلام ورسالته، فقد كن إذ ذاك في سنَّ لا تعتد بها تلك البيئة في مواقف الإناث من كبريات الأحداث، إلى جانب موضعهنَّ من أبوة رسول الله ﷺ، مما تقضي معه البداهة ألا يقفن موقفًا قصيًا عن مطالع الإيمان ومشارق الرسالة، والتصديق بالدعوة التي ملأ نورها خدورهنَّ، وساحات حركاتهنَّ حول أمهنَّ التي كانت وزيرة صدق لأبيهنَّ ﷺ في مؤازرته على رسالته التي بعثه الله بها ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

أما ما حف بأمهنَّ من العناية الفائقة في ذكرها طليعة السابقين والسابقات إلى الإسلام قاطبة فنظرًا لما كان لها من المكانة الاجتماعية في قومها، فقد كانت منذ الجاهلية قبل أن تتشرف بزواج رسول الله ﷺ معروفة بالفضل والنبل ورفعة الشرف، وحسن الأحدوثة، ونظرًا لما كان لها من الآثار الحميدة الباهرة التي انفردت بها في مطلع شمس الرسالة، من شدها أزر رسول الله ﷺ

والوقـوف إلى جانبـه في عزيمة فاقـت في قوتهـا وصلابتها عزائم أبطـال الرجال، فقـد كانت رضي الله عنها تخفف عنه ﷺ شـدائد التبليغ، وتهون عليه فدائح ما يلقى في سبيل دعوته، وتزيده تثبيتًا على أمره مما جعلها دعامة من أقوى مساند الرسالة وانتشارها.

أبو بكر الصديق أول البشر إلى الإسلام دعوة وتبليغا:

ثم آمن أول مدعو إلى الإسـلام، فحل الملة، وإمام الأمة، سـيد المسـلمين وأفضل أتباع الأنبياء والمرسـلين، الصديق الأعظم، ثانـي أول اثنين فـي أعظم منازل الفداء، وأجـل مصادق الإيمان، مَنْ وَسَـمَه الله تعالى بأشـرف الألقاب، قرآنا يتعبـد به ويتلى إلى يوم القيامة، فجعله الصاحب الأخص بإضافة التكريم في الامتنان الأعظـم على الحبيب الأكـرم، يعرض تهييج الأمـة على الكفاح المؤزر الذي ينتظرها بعد محنة أفظع مؤامرة في أخس وأدنأ خطة كافرة حاقدة، حيث بدأت الهجرة، وتبسـمت التضحية في وجه المـوت، بين فكي المنية في غار ثور، فـداء للحبيب المحبوب، عنوان الحقيقة الكبرى، ونور الهداية العظمى، وشـمس الرسالة الخاتمـة، ومهبـط أمين أمناء الوحـي من الملأ الأعلـى، ومجلى الروحانية العليا محمد رسول الله ﷺ:

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: ٤٠)

يقول الإمام الشعبي : عاتب الله أهل الأرض جميعًا في هذه الآية غير أبي بكر .

لله أنت يا صديق رسول الله ﷺ : من مثلك في المؤمنين أتباع الأنبياء منذ نَبَّأ الله آدم أبا البشر إلى أن أبرزك الله من ذريته أخص صاحب لأخص حبيب له عز وجل ، محمد عبده ورسوله ، وخاتم أنبيائه ؟ حسبك من شرف وفضل أن الله تعالى نظمك في سلك المعية الخاصة ، بعد أن آنسك برشح من غيث شهود الحبيب ، حيث رفعت حجب البشرية ، وانطلق لسان الروحانية العليا يخاطبك من أفق الملأ الأعلى ، ليلقي في قلبك وروحك باسم اليقين ، وقد اهتزت منك مشاعر الإشفاق على نور الحياة أن تصيب شمسُه عاصفةً من عواصف الجحود الأصم الأعمى ، فينطفئ شعاعها ، ويسود الظلام آفاق الوجود .

وأحس ذلك منك سيد الوجود وهو مغمور بأنوار الشهود ، وحيث كانت روحه تسبح في بحار التقديس مع أعلياء الملأ الأعلى ، فألقى إليك درة من لآلئ شهوده ليثبتك على دعائم

﴿ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ (الصف : ٨)

فقال لك إذ قلت معبِّرًا عن إشفاقك ما قلت :

﴿ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ ﴾ (التوبة : ٤٠)

فتنزلت عليك السكينة ، وتجلت لك لوحة بسطورها اللوامع من وراء حجب الإشفاق ، فقرأت وعرفت أنه ﷺ وإياك

في رحلة عقد لواءها النصر المؤزر، وأيد الله رسوله بجنود من عوالم الغيب، لا تقع تحت طائلة رؤية العيون والأبصار، ولا تحتويها إلا بصائر المصطفين من الصديقين.

روى الطبراني: أن عليًّا رضي الله عنه كان يحلف بالله أن الله أنزل اسم أبي بكر من السماء صديقًا، قال علماؤنا من السلف والخلف: وهذا حكمه الرفع إلى رسول الله ﷺ إذ لا مدخل للرأي والاستنباط في مثله.

الأسبق إسلاما أبو بكر أم أَهلُ بيت النبي؟

والقول بأسبقية السيدة خديجة وبناتها من سيدنا رسول الله ﷺ إلى الإسلام، وأسبقية علي رضي الله عنه، وزيد بن حارثة، من كل مَنْ كان يظلهم سقف بيت رسول الله ﷺ في رعاية الزوجية، والأبوة، وحضانة التربية والولاء - لا يعارض قول جمهور العلماء من الصحابة والتابعين وتابعيهم، ومن جاء بعدهم من الأئمة بأسبقية الصديق أبي بكر -رضي الله عنه- جميع البشر إلى ساحة الإيمان برسول الله ﷺ والتصديق برسالته؛ لأن إسلام أسرة رسول الله ﷺ: زوجه وبناته، وربيب رعايته وتربيته ابن عمه، ومولاه وحِبّه - كان إسلام الفطرة النقية الطاهرة، التي ولدت في مهد الإيمان، ونشأت بين أحضان النبوة، حيث شاهدت أكرم مكارم الأخلاق، ورأت معالم النبوة وآياتها الإرهاصية، تتجلى في حياة النبي ﷺ قبل نزولها، ثم رأت معالم الوحي، وسمعت آيات الله تتلى في بيتهم، والحكمة تتنزل بينهم، وشهدت

النبـي ﷺ وهـو الزوج الحبيـب الأكرم، والأب الـودود المحب الحبيـب، والحاضن المربي الشـفيق، والمولـى الرحيم الرفيق، والمعلم المهذب المؤدب، والمشرع السمح الحكيم، والرسول المصـداق الأميـن، ينزل عليه الوحي بآيات الرسـالة وشـرائعها وأحكامهـا وآدابها، فإذا هو ﷺ صورة حية متحركة لهذه الآيات والشرائع والأحكام والآداب، فيأخذون عنه خلقه وعمله مشاهدة ومحاكاة، ويسـمعون منه مـا يأمر به ويرغِّب فيه مـن الخير وما ينهـى عنـه وينفر مـن مقاربته من الشـر، فيتشـربون مـن يقينه وإيمانـه وحكمته وآدابه وشـرائعه مـا تطيق قلوبهـم وأرواحُهم حملَـه، وتترسـم عقولهم ما تسـتطيع إدراكه من مشـاهد النبوة والوحي، وإشراق الرسـالة، وينهضون إلى القيام بجوارحهم أداء لما يطلب من الجوارح.

فسـبق هؤلاء الغرِّ الميامين إلى الإيمان بـالله تعالى وتوحيده، والتصديق برسالة النبي ﷺ فطري طبيعي، تقتضيه الفطرة النقية، والطبيعة الناهدة بين أحضان الخير والهدى؛ لأن في ذلك تحقيقًا لما يشـهدونه فـي واقع حيـاة الأب والزوج والمربي، والرسـول الصـادق المصـدق مـن أدب وخلق وعمـل، ليصنعـوا منه صورة أنفسـهم وعقولهم وقلوبهم وأرواحهم ومشـاعرهم وإحساساتهم تحببًا إليه، واستجابة له، وإيناسًا لخوالجه، وتقربًا إلى الله تعالى.

وهـذا هو أصدق ضروب الإيمان، فهو إيمان اسـتجابة لدوافع الفطرة المطهرة التي لا تدفع، وهو إيمان ينبع من الامتزاج بحياة

قام بنيانها على الإخلاص المؤمن بكل حركة يشهدونها من النبي ﷺ ، لم يكن إيمانًا عن دعوة تبليغية منه ﷺ لأسرته ومجتمع بيته وأهله لأنهم لم يكونوا في حاجة إلى دعوة وتبليغ، ضرورة تكيفهم بكل ما يرون ويسمعون في هذا البيت الكريم، وضرورة تقبلهم لكل ما يشهدون من الخير تقبل الفطرة النقية، وطبيعة النشأة الحاكية وتصديق الإيمان والإسلام.

ولم نَرَ في روايات الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته رواية تذكر أن النبي ﷺ دعا أهله وأفراد أسرته الخاصة المقيمين معه في ظل رعايته وتربيته ببيته تبليغًا لرسالته إليهم؛ لأنهم كانوا مدعوين بالفطرة والتربية، فأجابوا بهذه الفطرة، وهذه التربية، وسبقوا إلى الإيمان والإسلام.

أما ما ورد في بعض الروايات من دعوة لعلي رضي الله عنه إلى الإسلام، وتوقفه بعض الشيء، ثم أسرع إلى الإجابة وسبق إلى الإيمان في طليعة السابقين فلم تثبت لنا صحته، ولو فرضناه صحيحًا فهو من قبيل التثبيت والمساندة؛ لأن وجود عليّ رضي الله عنه في أحضان تربية النبي ﷺ مع أسرته في بيته وهو صبي كان لأمر خاص، قصد به إسعاد أبي طالب ومعاونته ـ وكان كثير العيال ـ في التخفيف عنه من عبء الأزمة المعاشية التي نزلت بقريش، ولم يكن هذا الوجود ليبعد عليا عن أبيه وإخوته وعمومته، وهم على شركهم إذ ذاك مقيمون، فكان رضي الله عنه في حاجة إلى التثبيت والمساندة بالدعوة والتبليغ.

أما إسـلام أبي بكر رضي الله عنه فكان إسـلام أول رجل حرّ مكلف، مدعو إلى الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ، والتصديق برسـالته، وكان إسلامه إسلام أول رجل حر مكلف بلَّغه النبي ﷺ رسـالة ربه، فهو إسلام اسـتجابة لدعوة النبي ﷺ وتبليغه رسـالته. فأبو بكر رضي الله عنه كان أول مبلَّغ بالرسالة، وأول مدعو إلى الإسلام، فأسرع إلى تصديق النبي ﷺ دون تلبث أو تـردد، وفي ذلك يقول النبي ﷺ كما ذكره ابن إسـحاق: «ما دعوت أحدًا إلى الإسـلام إلا كانت له كبوة ونظر وتردد إلا ما كان من أبي بكر، ما عَكَم -تَلَبَّثَ- عنه حين ذكرتُه له» ومن ثم ألبسه الله تعالى خلعة الصديقية، فلقب بالصديق.

فأبـو بكر رضي الله عنه آمن بالله ورسـوله وصدق برسـالة ربه لحظة أن دعي إلى الإسلام دون سؤال أو توقف أو حاجة إلى نظر، فكان أول البشـر مدعـوًا إلى الإيمان، وكان أول الناس اسـتجابة إلى الإسـلام، لم يسـبقه إليه أحد قط، دُعي وبُلِّغ واستجاب كما دعي هو وبُلِّغ فأجاب وسـبق وكان ثانـي اثنين في الدعوة إلى الله ورسوله، كما كان ثاني اثنين في الهجرة إلى الله مع رسوله.

وبهـذا الطريـق في فهـم الروايـات والأوضـاع يصح قول جمهور المسلمين: إن أبا بكر الصديق كان أول الناس إسلامًا.

وقـد ثبت في بعض الروايات أن أبـا بكر الصديق رضي الله عنه سـمع من ورقة بن نوفل ما سـمعته خديجة رضي الله عنها من تبشـير النبي ﷺ بأنه نبي هذه الأمة، وأن الله أرسـله هاديًا

ومبشـرًا ونذيرًا، وأنه هو الذي بشـر به عيسى بن مريم، وأنه على مثل ناموس موسى.

وفي بعض هذه الروايات تصريح بأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه صحب النبي ﷺ إلى ورقة في مشـرق رسـالته قبل أن يعرف عنهـا أحـد من الناس ـ خاصتهم وعامتهم ـ شـيئًا، سـوى خديجة رضـي الله عنها التي كانت تعرف كل شـيء فـي مطلع إبانه وأول لحظـات وجوده، بإحساسـاتها وتطلعاتها وتوسـمها المتفرس، وكانـت إنبـاءات النبـي ﷺ بمـا يقع له مـن الأحـداث والآيات والعجائب والإرهاصات تجيء مؤكدة لحدسها وتفرسها، وزادها تأكيدًا في يقينها بما كانت تتوقعه- ما سـمعته من ورقة بن نوفل عقيب مفاجأة الغار، ساعة عاد إليها رسول الله ﷺ ترجف بوادره من هول ما رأى وسـمع، ومن شـدة ما كان وتحمل، في أول لقاء يقظـي لقيه فيه جبريل عليه السـلام، وأوحى إليه مـن أمر ربه ما أوحى، وأقرأه أول ما أنزله الله عليه من كتابه

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ (العلق: ١)

فأخبرها وقص عليها ما رأى وسمع، وانطلقت به إلى ابن عمها ورقة، وحدثته بما حدثها به رسـول الله ﷺ، فسمعت من ورقة ما صدق تفرسـها، وأقر عينها، وأكد توسمها وتطلعها في مستقبل محمد ﷺ ونبوته ورسـالته، مسندة له بما تعلمه يقينًا صادقًا من اتصافه ﷺ بأكرم مكارم الأخلاق التي لا يخزي الله صاحبَها.

قال صاحب (عيون الأثر): وفي رواية يونس عن ابن إسـحاق

بسنده إلى أبي ميسرة، عمرو بن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: «إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء، وقد خشيت والله أن يكون لهذا أمر» قالت: معاذ الله: ما كان الله ليفعل ذلك بك، فوالله إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث.

فلما دخل أبو بكر وليس رسول الله ﷺ ثم ذكرت خديجة له، فقالت: يا عتيق، اذهب مع محمد إلى ورقة، فلما دخل رسول الله ﷺ أخذ أبو بكر بيده، وقال: انطلق بنا إلى ورقة، فقال النبي ﷺ: «ومن أخبرك؟» قال: خديجة، فانطلقا إليه، وقصا عليه، فقال النبي ﷺ: «إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء من خلفي: يا محمد، يا محمد، فأنطلق هاربًا في الأرض» فقال له ورقة: لا تفعل، إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول لك، ثم ائتني وأخبرني، فلما خلا رسول الله ﷺ وحده ناداه يا محمد، يا محمد، قل:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

حتى بلغ: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة: ١ – ٧)

قل: لا إله إلا الله، فأتى النبيُّ ﷺ فذكر له ذلك، فقال ورقة: اثبت، وأبشر، فأنا أشهد أنك الذي بشر به ابن مريم، وأنك على مثل ناموس موسى، فإنك نبي مرسل، وأنك ستؤمر بالجهاد بعد يومك هذا، ولئن أدركني ذلك لأجاهدن معك.

فلما توفي ورقة قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيت القس في الجنة، وعليه ثياب الحرير، لأنه آمن بي وصدقني».

ففـي هذه الرواية تصريح يصدقـه التاريخ بأن أبا بكر الصديق رضـي الله عنـه كان أصفـى الأصفيـاء لمحمـد ﷺ ، وكان ألصق الناس به قبـل مبعثه، وأقواهم مودة، وأعظمهم صداقة، وأكثرهم له خلطة، وأشـدهم امتزاجًا بروحه وعقله، وألزمهم عشرة، حتى كأنـه أحد الأخصـاء في أهله، يعلم مِن أمره وحاله مـا لم يعلمه مَن لم يؤهلـه حياء الأدب ـ في ظل الرعاية والتربية وهيبة الأبوة، سـنًا وتجربة وتأثرًا بسنن البيئة والمجتمع بما يكون بين الأكابر والأصاغـر ـ لعلـم مثله قبل أن يظهـر ويتحدث به، وأن السـيدة خديجـة رضي الله عنها كانت علـى أكمل المعرفة بما بين محمد ﷺ وأبـي بكر من صفاء المـودة، وامتزاج الإخاء والصداقة، مما يجعل أبا بكر أعلم الناس بأمره ﷺ ، وأن لا حرج عندها من إخباره بما حدثها به النبي ﷺ مما وقع له، وأن تطلب منه أن يصحبه إلى ورقة ليسـمع منه ما يقول، تأكيدًا لفراسـتها وتوسماتها، وزيادة في تثبيت النبي ﷺ وتخفيف ما يجول في خواطره.

فلمـا حدَّثها رسـول الله ﷺ بما حَدَث له من سـماع النداء باسـمه، دون أن يرى من يهتف به ويناديه، وإشفاقه من ذلك، أرادت أن تزيـح عـن كاهلـه عـبء ما علق بنفسـه مـن القلق والخشية، وتزيده تثبيتًا فوق ما كانت تثبته به وتؤنسه لتفرج عنه ما ألمّ بنفسه من أثر مفاجأته بأمور غريبة لا عهد له بمثلها.

وكانـت خديجة رضـي الله عنها قد زارت ابن عمها ورقة بن نوفل أول مرة بعد إذ فاجأها النبي ﷺ ترجف بوادره، وأخبرها

بما حدث له في الغار، وحدَّثت ورقة بما حدَّثها به رسول الله ﷺ، وسمعت عنه بشارته لرسول الله ﷺ بأنه نبي مرسل.

وكان رسول الله ﷺ قائمًا على تعبده في غار حراء، فلما وقع له ما وقع لم يقطع جواره وتعبده، بل ظل على ما كان عليه، مما يدل دلالة قاطعة على أن ما وقع في نفسه من الخشية، لم يكن قط خشية تمس مداركه أو شعوره، وذهب إلى خلائه، وقضى ما كان يقضيه من التعبد، وإطعام المساكين، متفكرًا في آيات الله وآلائه، وعاد إلى أهله بعد أن سمع النداء باسمه، دون أن يرى من يناديه، وأخبر أهله جريًا على حميد عادته معهم في الأنس بهم، والإفضاء إليهم بما يحدث من أمره، فآنسته بما كانت تؤنسه به من حفاوة الله تعالى به، وما خصه به من مكارم الأخلاق وحميد الشمائل.

وكان أبو بكر -رضي الله عنه- دائم التنسم لعرف رسول الله ﷺ في تلمس لقائه، وكثرة التردد عليه في بيته، ليلقاه ويزوِّد روحه وعقله بمشهده، ومطالعة مكارم أخلاقه. وجاء أبو بكر رضي الله عنه إلى بيت رسول الله ﷺ جريًا على سنته، وكان رسول الله ﷺ ساعة مجيء الصديق غير موجود في البيت، فقالت خديجة رضي الله عنه لأبي بكر: يا عتيق اذهب مع محمد إلى ورقة، فلما جاء رسول الله ﷺ أخذ أبو بكر بيده، وقال له: انطلق بنا إلى ورقة، ويظهر أن سيدنا رسول الله ﷺ كان حريصًا على أن يُبقي ما أفضى به إلى زوجته السيدة خديجة رضي الله عنها سرًا لا يطلع

عليه أحد، مهما تكن خصيصته به، حتى تنجلي شمسه، ولعله من هنا كان سؤاله للصديق سؤالا لا يخلو من استغراب وعدم توقع، فقال له: «مَن أخبرك؟» كأنه ﷺ خشي تَفَلُّت الحديث وتسربه، لكن الصديق أخبره، فقال: أخبرتني خديجة، فاطمأن النبي ﷺ وتيقن أن الأمر لم يخرج عن دائرة أصفى الأصفياء وأخص الأصدقاء.

ولو لم تكن خديجة رضي الله عنها تعلم علم اليقين منتهى الرضا من نفس رسول الله ﷺ ما أخبرت الصديق، ولا طلبت إليه أن يذهب مع رسول الله ﷺ إلى ورقة ليزداد بسماع كلامه وتبشيره باصطفاء الله له نبيًا ورسولاً تثبيتًا في أمره، ويقينًا في حاله، ويذهب عن نفسه ما يجد من قلق وخشية.

ولا شك أن هذا يدل على كمال الأنس وأصفى صفاء المودة، وأخلص الصداقة بين النبي ﷺ وأبي بكر الصديق، بدليل أن النبي ﷺ لم يبد عليه أدنى مظهر من مظاهر الإنكار وعدم الرضا لتعريف الصديق بأمر من أخص أحواله، لم يفض لأحد قط سوى زوجه ومأنسه ووزيرة الصدق له في تحمل أعباء الرسالة، بل استجاب إلى طلب الصديق ومرافقته إلى ورقة بعد أن علم أن خديجة هي التي أخبرت أبا بكر بما حدث، فبشره ورقة وفرج عنه، وازداد بكلامه تثبيتًا، وآمن به وصدق [ورقة] برسالته، وتمنى لو أنه أدرك الجهاد معه لينصره نصرًا مؤزرًا.

ومن ثم وقر الإيمان في قلب أبي بكر رضي الله عنه كما وقر

فــي قلب الصديقة خديجة رضــي الله عنها ، فكانا أول لؤلؤتين في عقد دراري الســابقين إلى الإســلام، وكانا أسبق السابقين إلى الإيمان برســالة محمد ﷺ ، وتصديقه فيما جاء به عن الله تعالى دون أدنى تردد أو توقف .

وقد كان لخديجة رضي الله عنها في مطالع إيمانها مشـرِقَ الرســالة سوابقُ لم تكن لأبي بكر رضي الله عنه ولا لغيره قط ، وكانــت لأبي بكر رضي الله عنه في مدى حياته الإيمانية ، منذ دعاه رســول الله ﷺ إلى الإســلام أول مدعو إليه ، فأجاب دون تلبث إلى أن ردّ رســن الإسلام إلى غاربه في جهاد الردة سوابق لم تكن قط لأحد غيره من أتباع النبيين والمرسلين .

فلكل من السابقين فضله الذي ينفرد بشرفه فلا يلحقه فيه لاحق .

وقــد ســبق أن ذكرنــا أن العلامــة الحافظ الإمــام ابن حجر العسقلاني استنبط من حديث أبي ميسرة أن خديجة رضي الله عنهــا أول الآدميين إيمانًا برســول الله ﷺ ، وأن هذا الحديث أصرح نص في ذلك .

وهــذا الحديث نفســه الذي اســتنبط منه الحافــظ العلامة هــذا الحكم يحمل فــي غضون قصته كمــا عرضناه وأوضحنا معالمها دلائل أوليةِ ســبقِ الصديــق أبي بكر رضي الله عنه إلى الإســلام بسيدنا رســول الله ﷺ والتصديق برســالته ، أوليةً لا نقول فيها إنه ســبق فيها خديجة رضي الله عنها ، ولكنها أولية يحل عقدتها في مسابقته لها أنها أولية تشبه أولية المتكافئين

-في الشـروط- اللذين وصلا إلى الغاية قرنًـا واحدًا، أو أولية تشبه أولية المتكافئين في مسابقة امتحانية من التي يعبر عنها الفنيون في نظم المسابقات بأنها تكافؤ (مكرر) لم يسبق فيه أحد المتسابقين صاحبه، ولكنهما تساويا في درجات التقدم.

وهـذه الأولية المتكافئة (المكـررة) لا تخضع لحكم فواصل لحظـات الزمن لتقارب لحظات التقـدم أو التأخر إلا كما يخضع أثر يقين الفطرة الملازمة اللاقطة في مرآتها صور جزئيات الوقائع والأحداث ممثلة في إسـلام خديجة الزوجة البـرة الوفية الأمينة، وأثـر يقين العقل الغواص في أعمـاق النفس والأحداث ممثلا في إسـلام أبي بكر وسـرعة اسـتجابته لدعوة النبي ﷺ أول ما دُعي لحظة التبليغ، لعلمه بموجبات الصدق عند رسول الله ﷺ.

يقول الزرقاني في شـرح المواهب: ووقوع إسـلام الصديق عقب إسلام خديجة؛ لأنه كان يتوقع ظهور نبوته عليه السلام، لما سـمعه من ورقة، وكان -أي أبـو بكر- يومًا عند حكيم بن حزام، إذ جاءت مـولاة (جارية) له فقالت: إن عمتك خديجة تزعم في هذا اليوم أن زوجها نبي مرسـل مثل موسـى، فانسل أبو بكر حتى أتى النبي ﷺ فأسلم.

وقول الزرقاني: إنه كان يتوقع ظهور نبوته عليه السلام لما سمعه من ورقة يدل على ما ذكرناه من مشاركة أبي بكر السيدة خديجة رضي الله عنهما في إشـراق نور الإيمان في قلبهما لما سمعاه من ورقة.

فالسيدة خديجة رضي الله عنها كانت الزوجة الوفية الأمينة التي رزقها الله عقلا لمَّاحا، وفطنة صافية زاكية، لم يعرف تاريخ الإنسانية لها نِدًّا في صدق وفائها وأمانة سرها، واستشراف عقلها إلى مطالعة أعماق النفوس البشرية، وعرفانها بآثار الفضائل والمكارم في صياغة الحياة الفردية والاجتماعية وموافقات تطلعاتها المتوسمة، وتفرساتها الألمعية.

كانت للنبي ﷺ وزيرة صدق، ومأنس تثبيت، وموئل تهوين للشدائد وتوهين للمصاعب، فلم يكن رسول الله ﷺ يسمع شيئًا يكرهه إلا فرَّج الله بها عنه، وزاده تثبيتًا ويقينًا في أمره، وقوة في احتماله وصبره.

وأبو بكر رضي الله عنه هو الصاحب الوفي، والصديق الأمين، والمؤمن القوي، لم يعرف التاريخ له نظيرًا في قوة إيمانه، وشدة دفاعه عن رسول الله ﷺ، وتفديته بروحه وبذله نفسه وماله في سبيل عقيدته وإسلامه، عرف الحق فلم يستطع كتمانه، فكان أول من جهر به على سمع الملأ من طغاة الوثنية وأنضاء الشرك، فأوذي بكل ألوان الإيذاء حتى شارف الهلاك، فلم يصده ذلك عن قيامه مقامات الصدق، ولا وهن من عزيمته في ملازمته رسول الله ﷺ فهو أول في جميع أوليات الإسلام، وهو أسبق السابقين في سائر سوابق الإسلام.

وقد جاء على لسان رسول الله ﷺ ـ وهو الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ـ الثناء على أبي بكر رضي الله عنه بأقرب

ما أثنى به ﷺ على السيدة خديجة في موقفين متماثلين، روى الطبراني أن النبي ﷺ قال للسيدة عائشة رضي الله عنها حين قالت له في معرض ذكره ﷺ للسيدة خديجة ووفائه لذكراها بعد وفاتها: قد رزقك الله خيرًا منها ـ تعني نفسها ـ «لا والله ما رزقني خيرًا منها، آمنت بي حين كفر الناس، وصدقتني حين كذبني الناس، وأعطتني مالها حين حرمني الناس».

ويروي هذا الحافظ ابن حجر بأتم من ذلك في (الإصابة)، وأخرجه أبو عمر بن عبد البر في (الاستيعاب) وعنه أسند الحافظ، قال أبو عمر بن عبد البر: وروي عن علي بن المديني، قال: أخبرني حماد بن أسامة عن مجالد، عن عامر الشعبي، عن مسروق، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: ذكر رسول الله ﷺ خديجة ذات يوم، فتناولتها، فقلت: عجوز، كذا وكذا، قد أبدلك الله خيرًا منها، قال: «ما أبدلني الله خيرًا منها، لقد آمنت بي حين كفر بي الناس، وصدقتني حين كذبني الناس، وأشركتني في مالها حين حرمني الناس، ورزقني الله ولدها وحرمني ولد غيرها» فقلت: والله لا أعاتبك فيها بعد اليوم.

وفي رواية أخرى بسند آخر عن الشعبي عن مسروق أيضًا عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة رضي الله عنها، فيحسن الثناء عليها، فذكرها يومًا من الأيام فأدركتني الغيرة، فقلت: هل كانت إلا عجوزًا، فقد أبدلك الله خيرًا منها، فغضب ﷺ حتى اهتز مقدم شعره

مـن الغضب، ثم قـال: «لا والله، ما أبدلني الله خيـرًا منها، آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواسـتني في مالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها أولادا إذ حرمني أولاد النسـاء» قالت عائشة: فقلت في نفسي: لا أذكرها بسيئة أبدًا.

وفي حديث مغاضبة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما عند البخاري في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدق، وواسـاني بنفسـه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبـي؟»، وأخرج الطبرانـي وغيره أن النبي ﷺ قـال: «ما أحد أعظم عندي يدًا من أبي بكر واساني بنفسه وماله».

فهـذه الأحاديـث الشـريفة تضع أمـام أنظـار الباحثين في حلبة التسـابق الإيماني أسـاس التكافؤ في ميدان السبق على الإسلام بين أسبق سابقين، الصديقين، صديق المؤمنين قاطبة وصديقة المؤمنات طرًّا: أبي بكر وخديجة، رضي الله عنهما، ويبقـى وراء ذلك التفرد المطلـق العام والخاص لثاني اثنين إذ هما في الغار، غار ثور يوم الهجرة والنصر المؤزر والفداء الأغر الأكـرم، الصديق أبي بكر رضي الله عنه الذي اختاره الله أخص صاحب لنبيه ورسـوله وحبيبه محمد ﷺ في أشـد ما مرّ على الإسـلام من شـدائد المحن، وقد نوّه النبي ﷺ بهذه الصحبة الخاصـة، فذكرها بإضافـة التكريم والتشـريف والاختصاص فقال في حديث مغاضبة عمر لأبي بكر رضي الله عنهما: «فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟» أخذًا من قول الله تعالى:

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾

(التوبة: ٤٠)

ولا شك أن الإضافة في الآية الكريمة، والحديث الشريف إضافة تخصيص تدل على منزلة من الصحبة أجلّ وأرفع من مطلق الصحبة العامة الثابتة بفضلها وشرفها لسائر الصحابة رضي الله عنهم.

فإسلام أبي بكر رضي الله عنه كان إسلام العقل العليم بدلائل الصدق، الموقن بموجبات الحق، الذي أسرع مجيبًا داعي الله لحظة أدّت أذنُه إلى عقله وقلبه وروحه نداءَ التبليغ والدعوة إلى الإيمان بالله عزّ وجل وتصديق رسوله ﷺ.

وإسلام أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها كان إسلام الفطرة النقية الصافية الزاكية المتطلعة إلى المستقبل في توسم الفراسة النورانية الصادقة، إلى موجبات الوقائع والأحداث وإرهاصات الآيات والدلائل المتعاقبة طوال حياة الزوج الحبيب، المفضي بروحه وعقله وقلبه وإحساساته ومشاعره في سره وعلانيته إلى روحها وعقلها وقلبها وإحساساتها ومشاعرها، في ملازمة لازمة لا يند عنها حادث من أحداث حياتهما، ولا تذهب من تأملاتهما وتفكيرهما واقعة من وقائعها.

وهذا السباق الظافر الميمون، الذي لم تقم له حلبة مسابقة تقصد إلى غايتها القُرَّحُ من جيادها كان قدرًا مقدورًا، جمع في شوطه رجلًا وامرأة ليتم به عنوان الدعوة في شموله جانبي الإنسانية بطرفيها، ذكر وأنثى، فالمرأة في الإسلام شريكة الرجل في تكاليفه وأحكامه وشرائعه وآدابه، وكل مُيسَّر لما خلق له.

التحرك الإيجابي لسير الرسالة

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه أول ثمرة جَنيه في دوحة تبليغ الرسالة:

كان إسلام الصديق أبي بكر رضي الله عنه أول تحرك إيجابي في سير الرسالة، وأول أثر عملي للدعوة التبليغية للإيمان بالله تعالى، وتصديق رسوله فيما جاء به من الحق والهدى، وأول ثمرة جنية ظهرت في دوحة تبليغ الرسالة.

فقد آمن الصديق أبو بكر رضي الله عنه لحظة دُعي إلى الإيمان، لم يتلبث لينظر، ولم يتوقف ليفكر ويعزم، ولم يتردد ليستشير ويستهدي؛ لأن دلائل صدق النبي ﷺ كانت متوافرة لديه، وكامنة في حنايا نفسه، ممتزجة بحسه وشعوره، تملأ قلبه وعقله وروحه.

وهنا يتجلى للمتأمل في أحداث الرسالة فيْصلُ ما بين إيمان الفطرة النقية الصافية، التي نهد الإيمان معها، ونهضت معه، وهي ترى وتسمع شواهد الأحداث، ونداء الوقائع، ودلائل الإرهاصات، قبل تنزل الرسالة، وإيمان العقل العليم الذي دُعي بين يدي براهين الصدق فاستجاب، وبُلغ الرسالة فأجاب، ونظر فما استراب.

فإيمان الفطرة الذي سبقت به خديجة رضي الله عنها ومن معها في ساحة بيتها -اطمئنانٌ إلى نور الحق يغمر النفس، ويشغلها في حدود طاقتها بموجبات الإيمان الناشئ في مهد الرسالة، انتظارًا لما ينجلي عنه أفق الدعوة بظهور شمس

الهداية، وإشراق أضوائها التي تظهر بها معالم الطريق إلى الله.

وإيمان العقل العليم، الذي دُعي إلى التصديق بالرسالة، وهو مغمور بأنوار دلائل صدق الداعي، وهداية الدعوة فلبى وأجاب، والذي بُلغ بالرسالة وهو يشهد بشائرها فاستجاب ـ إيقانٌ بالحق الذي دعي إلى الإيمان به، وتحمَّل مسئوليته في الدعوة إليه، وتبليغ رسالته.

ومن هنا قال الأجلاء من سلف الأمة وخلفها: إن أول الناس إسلامًا أبو بكر الصديق، وهم يعنون إيمان الدعاء إلى الله عز وجل، وتبليغ الرسالة، وتحمل مسئولية النيابة والوراثة في هذا الدعاء والتبليغ، لتسير الرسالة في طريقها قوية متحركة مع الزمن حركة إيجابية، تجذب القلوب والعقول إلى ساحة الإيمان بالله والتصديق برسالة محمد ﷺ، وهكذا كان إيمان أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فهو منذ أجاب إلى الإسلام أقام نفسه داعيًا إلى الله، يبلغ دعوة رسول الله ﷺ، متحملًا مسئولية النيابة والوراثة في الدعوة والتبليغ.

وخصيصة أبي بكر رضي الله عنه في ذلك أنه كان أول من تحمل هذه المسئولية؛ لأنه كان أول مؤمن يطيق حملها والقيام بأعبائها باعتباره الشخصية الوحيدة التي كانت مؤهلة لهذا التحمل إذ ذاك.

أما خديجة رضي الله عنها فمكانها من رسول الله ﷺ، وطبيعتها الأنثوية، ووضعها الاجتماعي في بيئتها ومجتمعها لا تجعل لها سبيلًا إلى تحمل المسئولية التكليفية في الدعوة

والتبليغ، وأما عليّ رضي الله عنه فسنه يوم أن أسلم لا تؤهله لتحمل هذه المسئولية لأنه أسلم وهو دون البلوغ، ومكان زيد بن حارثة من ولاية رسول الله ﷺ الخاصة أحرى أن لا تؤهله لتحمل مسئولية التكليف بالدعوة والتبليغ يوم أن أسلم.

حديث عمرو بن عبسة وتأويله بما لا يتنافى مع الواقع التاريخي:

ولعل هذا هو تأويل حديث عمرو بن عبسة الذي أخرجه مسلم في صحيحه، قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو نازل بعكاظ، قلت: يا رسول الله، من اتبعك على هذا الأمر؟ قال «اتبعني عليه رجلان، حر، وعبد، أبو بكر، وبلال» قال عمرو بن عبسة: فأسلمت عند ذلك، فلقد رأيتني إذ ذاك ربع الإسلام.

قال علماؤنا: ولم يذكر عليًا لصغره، ونقول: ولم يذكر خديجة وزيدًا لما بيّناه، ولعل هذا أيضًا هو تأويل ما ذكره البيهقي في الدلائل عن محمد بن كعب القرظي، قال: إن أول من أسلم من هذه الأمة خديجة بنت خويلد، وأول رجلين أسلما أبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وإن أبا بكر أول من أظهر الإسلام، وإن عليًا كان يكتم الإسلام فرقًا من أبيه.

أول فرض الصلاة قبل الخَمس وأول من صلى مع رسول الله ﷺ:

ويذكر البيهقي في دلائل النبوة عن محمد بن إسحاق قوله: وكانت خديجة أول من آمن بالله ورسوله، وصدَّق بما جاء به، قال البيهقي: قال ابن إسحاق: ثم إن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ حين افترضت الصلاة ـ أي على النبي ﷺ، كما جاء

صريحًا في سيرة ابن هشام المأخوذة عن سيرة ابن إسحاق، حيث قال: تحت عنوان (ابتداء فرض الصلاة) وافتُرضت الصلاةُ عليه وحيث قال: قال ابن إسحاق: وحدثني بعض أهل العلم: أن الصلاة حين افتُرضت على رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو بأعلى مكة فهمز له بعقبه في ناحية الوادي فانفجرت منه عين.

والمراد مطلق الصلاة قبل فرض الخَمس ليلة الإِسراء، فهمز بعقبه في ناحية الوادي، فانفجرت له عين من ماء مزن، فتوضأ جبريل ومحمد عليهما السلام، ثم صلى ركعتين، وسجد أربع سجدات ثم رجع النبي ﷺ، قد أقر الله عينه وطابت نفسه، وجاءه ما يحب من الله فأخذ بيد خديجة حتى أتى بها العين، فتوضأ كما توضأ جبريل، ثم ركع ركعتين وأربع سجدات هو وخديجة، ثم كان هو وخديجة يصليان سرًا.

رواية في تصوير أولية إسلام عليّ رضي الله عنه:

ثم إن علي بن أبي طالب رضي الله عنه جاء بعد ذلك بيوم فوجدهما يصليان فقال علي: ما هذا يا محمد؟ فقال رسول الله ﷺ: دين الله الذي اصطفى لنفسه وبعث به رسله، فأدعوك إلى الله وحده، لا شريك له، وإلى عبادته، وكفرٍ باللات والعزّى، فقال عليٌ: هذا أمر لم أسمع به قبل اليومً فلست بقاض أمرًا حتى أحدِّث به أبا طالب، وكره رسول الله ﷺ أن يفشيِ عليٌّ سره قبل أن يستعلن أمره، فقال له: «يا علي، إذا لم تَسْلِم فاكتم» فمكث عليٌّ تلك الليلة حتى جاءه، فقال: ما

عرضتَ عليَّ يا محمد؟ فقال رسول الله ﷺ: «تشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، وتكفر باللات والعزى، وتبرأ من الأنداد» ففعل علي وأسلم، ومكث علي يأتيه على خوف من أبي طالب، وكَتَم علي إسلامه ولم يظهره، وأسلم ابن حارثة.

وهذه الرواية اختصرها ابن هشام في سيرته المهذبة لسيرة ابن إسحاق بما لا يخل بشيء من مقصودها.

الترتيب الواقعي بين طلائع السابقين:

فهذا الحديث بهذا السياق بَيِّنُ الدلالة على أن خديجة رضي الله عنها كانت أول من آمن بالله ورسوله إطلاقًا، لم يسبقها إلى تصديق النبي ﷺ، وإلى الإيمان بما جاء به من عند الله سابق قط، بيد أنها كانت في ظل طبيعتها كامرأة عربية في قمة الشرف، تعيش في بيئة لها أعرافها وعوائدها الاجتماعية، وأخلاقها التقليدية الموروثة، في جو كانت الرسالة فيه لما تزل في مطلع أشعة شمسها، لم ينتشر نورها، ولم تتقو بأنصارها، مع ملاحظة وجوب تفرغها لخدمة رسول الله ﷺ وقيامها بحق الزوجة الأمينة الوفية نحوه ﷺ، وقيامها بواجبات تربية أولادها أداء لحق الأمومة، ومواساتها له ﷺ في كل ما كان ينوبه من أعباء رسالته، وتخفيفها عنه آثار ما كان يلقى من الأذى في سبيل دعوته - غير متاح لها فرص تحمل مسئولية الدعوة، وتبليغ الدعوة تبليغًا تكليفيًا، وبقي إسلامها حقيقة ملأت فراغ نفسها في حدود قيامها بواجباتها كأوفى زوجة، وأصدق مُعين ووزير.

وهـذا الحديـث بهذا السـياق صريح الدلالة علـى أن عليًا رضـي الله عنه كان ثاني خديجة في السـبق إلى الإسـلام، وهو في سـن لم تبلغ بـه مبلغ التكليف، وتحمل مسـئولية الدعوة إلـى الله، والقيام بموجبات تبليغها، ممـا أحوجه إلى التوقف وعـدم الإقـدام على قبول مـا دعي إليـه من توحيـد الله تعالى والكفـر بالأوثان، وأنه ليس على اسـتعداد لأن يقضي في أمر غريب عليه وعلى حياته وحياة قومه وبيئته، لم يسـمع به من قبـل وأنه لا بد له من مؤامرة أبيه وتحديثه بما رأى وسـمع من محمد ﷺ، وأن النبي ﷺ كره ذلك منه، وخشـي أن يفشـي سـره، قبـل أن يظهـر أمره، وطلب منـه إذ لم يسـلم أن يكتم عليـه مـا رأى، وأن لا يتحدث بما طلبه منه مـن الإيمان بالله، والكفر بالأوثان، فكتم علي ذلك، ولم يحدِّث أباه بشيء مما رأى أو سـمع، ولكـن عليًا رضـي الله عنه بـات ليلته تصطرع في نفسـه الأفـكار والهواجس، حتى إذا أصبح جـاء إلى النبي ﷺ واسـتعاده ما عرض عليه من الإسـلام، فأسلم مكانه، غير أنـه مكث يلقى رسـول الله ﷺ يتلقى منه نـور الهداية ومعالم الإيمان، وهو يكتم إسلامه على خوف من أبيه وقومه.

وهذا الحديث يدل بسـياقه ومفهومه على أن زيد بن حارثة مولى رسـول الله ﷺ وحِبُّه رضي الله عنه، كان ثالث السابقين إلى الإسـلام، غير أن إسـلامه كان يقف به في دائرة ما يفرضه عليه وضعه الاجتماعي من قيود لا تسـمح له بتحمل مسئولية

التكليـف التبليغي والقيام بواجبات الدعوة إلى الإيمان، وهو في مكانه مـن هذا الوضع الاجتماعي، ومـا توجبه عليه ولاية رسـول الله ﷺ من حقوق وواجبات نحو هذه الولاية التي كان يحفها الحب الودود.

نتيجة البحث في التوفيق بين روايات السبق إلى الإسلام:

فـإذا ضُمَّـت دلالات هـذا الحديـث، وما كان علـى نحوه من الروايـات فـي الدلالات على سـبق خديجة وعلـي وزيد رضي الله عنهـم إلى الإسـلام، إلى روايات إسـلام أبي بكـر الصديق رضي الله عنـه، وتحمله منـذ اللحظة التي أجاب فيها داعي الله وأسـلم وجهه إلى الله تعالى مسئولية التكليف التبليغي والقيام بموجبات الدعـوة إلـى الله تعالى، وتصديق رسـوله فيما جاء بـه من الهدى مـن عند الله، وأنه كان أول من أظهر الإسـلام، ودعا إليه علانية، متحمـلًا في سـبيل ذلك صنـوف البلاء والأذى - ظهـر جليًا وجه ما ذهبنا إليه في التوفيق بين روايات السـبق إلى الإسـلام، توفيقًا يضع كل سابق في موضعه من واقع الحياة مشرق الإسلام ومطلع الهداية، بما اسـتوجبه موقعه يوم أن أسلم عملاً في طرفي السلب والإيجاب، ولكل سابق خوالده في تاريخ الإسلام.

انتهـض الصديـق أبـو بكر رضـي الله عنـه فـور إيمانه إلى الدعوة يحمل لواءها في ظل رسول الله ﷺ مشمرًا في تبليغها بعـد أن أظهر إسـلامه على الملأ، فدعا إليها أوائل السـابقين ممن وثـق بإجابته لمعرفته باسـتعداده لتقبـل الهداية، وكان

أبو بكر رضي الله عنه ـ كما يقول ابن إسحاق في سيرته ـ رجلاً مألوفًا لقومه، محببًا سهلًا، وكان عليمًا نسابة، أنسب قريش لقريش، وأعلمها بها، وبما كان فيها من خير أو شر، وكان رجلاً موسرًا، سري التجارة، كريمًا ذا خلق ومعروف ومآثر في قومه وبلده، وصنائع في منتجعه، لا يجهله مجتمع عربي يحل في ساحته، وكان رجال قومه يحفون به، يأتونه يخطبون وده، يألفونه لغير واحد من الأمر، ويعظمونه لعلمه وتجاربه، وحسن مجالسته، وقد جعلت منه هذه الصفات النبيلة عضدًا قويًا للنبي ﷺ في مطلع شمس الإسلام، وركنًا شديدًا، تأوي إليه الدعوة منحدرة من آفاق رسول الله ﷺ إلى كنفه، وجعلت منه صديقًا وفيًا أمينًا، يرفد رسول الله ﷺ في تبليغ رسالته، ورسول الله ﷺ يومئذ وحيد، مثقل الأعباء لا يحف به خارج بيته من رجالات قومه من يؤمن برسالته ويدفع عنها من يعوق سيرها ولا من يقف معه ردءًا يصدقه، بل كان ﷺ فريدًا في تحمل أمانة رسالته والدعوة إليها وتبليغها، فاختار الله له الصديق أبا بكر أوفى صديق، وجعل منه بعد رسول الله ﷺ أعظم داعية إلى دعوة الحق ورسالة الإسلام، يبلغها تأسيًا برسول الله ﷺ، أخذًا منه، وتلقيًا عنه، فجعل أبو بكر يدعو من يثق به من بيوتات قومه، فأجاب دعوته، واستجاب له في غير تردد أو توقف خمسة نفر، كانوا عُمُد الدعوة، وركائز تبليغ الرسالة.

أوائل الذين استجابوا إلى دعوة الإسلام على يد أبي بكر الصديق رضي الله عنهم:

(١) عثمان بن عفان الأموي العبشمي. قال الزرقاني في شرح المواهب: أخرج أبو سعد في الشرف عن عثمان رضي الله عنه قال: كنت بفناء الكعبة، فقيل: أَنْكَح محمد عتبة بن أبي لهب ابنته رقية، فدخلني حسرة ألا أكون سبقت إليها، فانصرفت إلى منزلي، فوجدت خالتي سعدى بنت كريز، فأخبرتني أن الله أرسل محمدًا، وحثتني على اتباعه، وكان لي مجلس من الصديق، فأصبته فيه وحده، فسألني عن تفكري، فأخبرته بما سمعت من خالتي، وحثها لي على الإسلام، فما كان بأسرع من أن مر رسول الله ﷺ ومعه علي، يحمل له أثوابًا، فقام أبو بكر فساره، فقعد ﷺ، ثم أقبل عليّ، فقال: «أجب الله إلى جنته، فإني رسول الله إليك وإلى جميع خلقه» قال عثمان: فوالله ما تمالكت حين سمعته أن أسلمت، ثم لم ألبث أن تزوجت رقية.

(٢) طلحة بن عبيد الله التيمي من رهط أبي بكر الصديق. أخرج ابن سعد عنه قال: حضرت سوق بصرى، فإذا راهب في صومعته يقول: سلوا أهل هذا الموسم، أفيهم أحد من أهل الحرم؟ قال طلحة: نعم، أنا، فقال: هل ظهر أحمد؟ قلت: من أحمد؟ قال: ابن عبد الله بن عبد المطلب، هذا شهره الذي يخرج فيه، وهو آخر الأنبياء، ومخرجه من الحرم، ومهاجره إلى نخيل وحرة وسباخ، فإياك وأن تسبق إليه.

فوقع في قلبي، فخرجت سريعًا حتى قدمت مكة، فقلت: هل كان من حدث؟ قالوا: نعم محمد الأمين تنبأ، قد تبعه ابن أبي قحافة، فخرجت حتى أتيت أبا بكر، فخرج بي إليه، فأسلمت فأخبرته بخبر الراهب. وقد روى هذه القصة الحافظ ابن حجر في الإصابة عن ابن سعد بسنده عن محمد بن إبراهيم بن طلحة، عن طلحة رضي الله عنه.

(٣) الزبير بن العوام الأسدي. أمه صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ، أسلم صغيرًا قبل أن يبلغ سن التكليف رضي الله عنه، قيل: إنه أسلم وسنه ثمان سنين، وهو قول ابنه عروة.

(٤) عبد الرحمن بن عوف الزهري. أسلم قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم مستخفيًا بدعوته، وهو أصغر من النبي ﷺ بعشر سنين.

(٥) سعد بن أبي وقاص الزهري، وكان رسول الله ﷺ يقول له: (أنت خالي) وفي حديث الترمذي عن جابر قال: أقبل سعد، فقال النبي ﷺ: «هذا خالي، فليُرني امرؤ خاله»، وقال ابن حجر: وقع في صحيح البخاري عنه أنه قال: لقد مكثت سبعة أيام وإني لثالث الإسلام، وقال ابن إسحاق في مغازيه: كان أصحاب رسول الله ﷺ بمكة - أي مطلع شمس الإسلام - يستخفون بصلاتهم، فبينا سعد في شِعب من شعاب مكة في نفر من الصحابة إذ ظهر عليهم المشركون، فنافروهم، وعابوا عليهم دينهم حتى قاتلوهم، فضرب سعد رجلاً من المشركين

بلحي جمل فشجه، فكان أول دم أريق في الإسلام، وكان سعد رضي الله عنه أحد أربعة يعدون أشد أصحاب رسول الله ﷺ. قال ابن حجر: أخرج محمد بن عثمان بن أبي شيبة في تاريخه بإسناد جيد عن ابن إسحاق قال: كان أشد أصحاب رسول الله ﷺ أربعة: عمر، وعلي، والزبير، وسعد. وعن عائشة بنت سعد عن سعد قال: أسلمت وأنا ابن تسع عشرة سنة.

وجزم ابن عبد البر في الاستيعاب أن سعدًا رضي الله عنه كان سابع سبعة في إسلامه.

كان هؤلاء الأبطال الخمسة أول ثمرة من ثمار الصديق أبي بكر رضي الله عنه، دعاهم إلى الإسلام فاستجابوا، وجاء بهم إلى رسول الله ﷺ فرادى، فأسلموا بين يديه، فكانوا الدعامات الأولى التي قام عليها صرح الدعوة، وكانوا العدة الأولى في تقوية جانب رسول الله ﷺ، وبهم أعزه الله وأيده وتتابع الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، رجالاً ونساءً، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث به الناس سرًا وعلانية، وكان كل من هؤلاء الطلائع داعية إلى الإسلام، وأقبل معهم رعيل السابقين، الواحد، والاثنان، والجماعة القليلة، فكانوا على قلة عددهم كتيبة الدعوة وحصن الرسالة، لم يسبقهم سابق ولا يلحق بهم لاحق في تاريخ الإسلام.

الخطواتُ الأولى في سير الرسالة

جرينا في بحثنا - الذي اعتضدنا فيه بالأدلة الثابتة والروايات الحديثة الصحيحة، والذي استندنا فيه إلى معاني الأحداث وأسبابها وموقعها من التاريخ، ومكانها من الترتيب الزمني في تتابع الأحداث، والذي استأنسنا فيه بأقوال وآراء بعض الأئمة من أعلام الأمة ورواة السيرة وجهابذة المحدثين - على أن نبوة نبينا محمد ﷺ كانت متقدمة زمنًا ووحيًا على رسالته، وذلك ذهابًا منا إلى ما تقتضيه حقيقة النبوة ومعناها في مفاهيم الحقائق الشرعية من أنها نوع من التربية الإِلهية الخاصة للمصطفين لمرتبتها من البشر، تقصد إلى لون من التهذيب والإِعداد الخاصٍ، دون تكليف تبليغ شرع جديد، أو إحياء شرع كان معمولاً به، ثم طمست معالمه، أو دخله تحريف، وأن مراتب النبوة من الوحي لا تبلغ أن تكون فيها مرتبة في مثل مراتب وحي الرسالة اليقظي، إذ لم يعرف في تاريخ النبوات، ولا في تاريخ انفراد نبوة نبينا محمد ﷺ التي بدأت بالرؤيا الصادقة، أن في مراتب وحي النبوة مرتبة تشبه أول مرتبة من مراتب وحي الرسالة، وهي ما وقع في أول لقاء النبي ﷺ بملك الوحي جبريل عليه السلام في غار حراء.

لقاء غار حراء صورة جديدة للوحي في معالمها وآثارها:

هذا اللقاء الذي كان يسوده عنصر المفاجأة بشدته البالغة من أول لحظة بدئه إلى نهايته، وهذا اللقاء هو المرة الأولى

التـي يلقى فيها جبريلُ أمين الوحي، وهو مسـربل بروحانيته العلية محمدًا ﷺ وهو متدثر ببشريته الزكية.

فهـو لقـاء بين طبيعتيـن مختلفتين أبعد اختـلاف، من عالمين مختلفين أشـد اختلاف في الحقيقة التكوينيـة، لقاء بين ملك من أجلّ وأعظم عوالم الملأ الأعلى، في علو روحانيته، وقدس نورانيته، وبين نبي من البشـر، تتمثل فيه عناصر البشـرية بأكمل أوصافها، وأتم خصائصها في الفضائل الإنسانية والمكارم الخلقية.

لقـاء بيـن شـخصيتين لا تجانـس بينهمـا فـي طبيعتهما الأصليتين، ولا في وجودهما الكوني في عالميهما، وهو لقاء يقـع فجـأة دون توطئة ولا تمهيد، بل ولا سـلام وإيناس، لقاء يفجـأ فيه النبـي ﷺ، أو يفجأ به، ولما يفق مـن روعة مباغتة الدخول عليه في خلائه دون توقع منه أو انتظار، وهو مستغرق في تأملاته الروحية وسـبحات فكـره الكونية، وهي تجول به فـي مظاهر جلال الله بمـا أبدعه من بدائع ملكه وملكوته - بما لم يكن له قط في حسبان.

فهو أمي لم تغير نبوته شيئا من أميته، وإذا به يفاجأ بطلب يقتضيـه الخـروج عن طبيعتـه ونزع خصائص بشـريته، وهو لا يـدري كيـف يكون ذلك؛ لأن الملـك المفاجئ له في لقائه يبدؤه مباغتًا فيقول له: (اقرأ) وهذا الطلب في مفاجأته وجَوِّه ومـا احتـف به من أروع ما يروع ويفـزع، ويرد النبي ﷺ على الملـك بما تقتضيه طبيعة الحال، مبينًا أن تحقيق هذا الطلب

ليس في طاقته واستطاعته، لأنه مباين لجبلته التي نشأ عليها وولد وعاش في أحضانها.

وأنى له أن يقرأ وهو ما عرف قط قراءة؟ فـ(ما أنا بقارئ) فيأخذه الملك إليه أخذًا غير رفيق، يغطه فيه غطة شديدة، يعصره بها عصرًا يبلغ منه أقصى جهده، ونهاية طاقة بشريته، ثم يرسله ويقول له: (اقرأ) ويرد النبي ﷺ، وهو لما يزل في روعة الغطة الأولى وشدتها، مسترفقا مبينا حاله وطبيعته، باسطا عذره في عدم استطاعته تحقيق ما يطلب منه ويسأل: (كيف أقرأ؟) وهو لا يعرف القراءة فطرة وجبلّة، ولا كان له بالقراءة عهد قط، لا تعلمًا وتلقيا، ويعود إليه الملك فيقول له: (اقرأ) فيرد النبي ﷺ مفتديًا نفسه أن يعود إليه بمثل ما كان منه إليه، من الغط والعصر الشديد، ويقول: (ماذا أقرأ؟) كما جاء في بعض الروايات صريحًا.

وهنا كان محمد ﷺ قد بلغ بروحانيته مقامًا جانس فيه الملأ الأعلى في روحانيته، حيث استفرغت بشريته، وانطلقت روحانيتُه من عقال قيودها المادية التي كانت تقيد بها بشريته، فقال له الملك عندئذ:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾

(العلق: ١- ٥)

وحي الرسالة نهج جديد في مراتب الوحي:

فهذه المفاجآت الباغتة المتكررة، وهذه الشدة العاصرة التي تتمثل في الضم الضاغط والعصر العنيف من ملك يصفه القرآن الحكيم بقوله: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ (التكوير: ٢٠)

ويصفه بأنه «شديد القوى ذو مرة» لإنسان بشر من الناس نبئ وأوحي إليه بوحي النبوة التي لم تبلغ في مراتب وحيها هذا المبلغ القوي العنيف الذي لقيه محمد ﷺ في مفاجآت الغار وأحداثه وشدائده.

وهذا الطلب الغريب العجيب الذي يطلب من النبي ﷺ القراءة، وهي أمر لم يكن في متناول طبيعته، ولا هو قد عرفه قط، ولا سمع به في حياته.

وهذه الآيات البينات من أول سورة العلق التي تنزلت من سماء الجلال الإلهي، فأوحاها الملك إليه، وأقرأه إياها، فقرأها إعجازًا، ونزلت على قلبه بردًا وسلامًا، وثبتت فيه كأنها كُتبت في كتاب، فحفظها وعاد بها إلى أهله قارئًا بعد أن لم يكن قارئًا، وبقيت في لوح الحياة علمًا على الإعجاز البياني، ومنارا للإعجاز المادي الخارق لقوانين الطبيعة، وضياء من الإعجاز العقلي، ونورًا من الإعجاز العلمي الذي عبر عنه النبي ﷺ وهو يصف معجزته الخالدة، ويبين فيصل ما بينها وبين سائر معجزات الأنبياء والمرسلين. روى البخاري عنه ﷺ أنه قال: «ما من نبي

من الأنبياء إلا أوتي ما على مثله آمن البشر، وكان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة».

وهذه الآيات التي افتتح بها وحي القرآن الكريم كانت أول آيات من الذكر الحكيم شرفت بها آفاق الحياة على هذه الأرض، فهي أول ما نزل بإطلاق من آيات القرآن المبين وكلماته، لم يسبقها تنزلاً غيرها قط، وهي أول ما أوحي به إلى النبي ﷺ في لقاء المواجهة ووحي اليقظة.

كل ذلك كان نهجًا جديدًا في الوحي إلى محمد ﷺ، تضمن أحداثا لم تمر بمثلها حياته في نبوته، فهو إذن ضرب من الوحي غير وحي النبوة، وهو فوق وحي النبوة بمضامينه وآثاره، وهو انتقال من مرتبة وحي النبوة إلى وحي الرسالة، وميلاد استهلت به الرسالة وجودها.

مقصد وحي الرسالة مختلف عن مقصد وحي النبوة:

يقصد وحي النبوة إلى نوع من التربية الخاصة، والتهذيب الشخصي لمن يصطفيه الله من عباده لتلقي أنبائه بما يشاء من وحيه وحكمته وشرائعه وآدابه، ليعملوا بذلك في خاصة أنفسهم تعبدًا لله تعالى وأسوة يتأسى بهم في هديهم من يؤمن بهم ويتقبل التأسي بهم، دون تكليف تبليغي بما أنبأهم الله به من وحيه إلا كما يطلب من كل من علم شيئًا من الخير والبر وحسن الأدب النفسي والعملي أن ينبئ به ويرغب فيه، وكل من علم شيئًا من الشرور وسوء الأدب والضلال أن ينهى عنه،

وينفـر منه، وهذا مندرج تحت عموم شِـرعة الأمر بالمعروف والنهـي عن المنكر، وهي شـرعة إلهية إنسـانية إصلاحية لم ينقطع نسـبها عـن جميع النبوات والرسـالات، وورثها منهم القائمون بالقسط، الآمرون بالخير، الناهون عن مقارفة الشرور والآثام استصلاحًا لعامة الخلق في حياتهم الاجتماعية.

أما وحي الرسـالة فهو وحي تكليف - يسـبقه أو يقع معه وحي التربية الخاصة والتهذيب الشخصي - تبليغ ما أوحي إليهم، وأُنبئوا به من الله تعالى من شرائعه وأحكامه وأخباره، وأمره ونهيه وزجره وإنذاره، ووعده وترغيبه، ووعيده وترهيبه، وتخويفه وتحذيره، ومنازل رحمته، ومواقع إحسانه وفضله، وإنعامه وجوده.

فهـو وحي يقصد أول ما يقصد إلى إصلاح الحياة، لتسـير على نهج ما شرع الله لعباده، وهو وحي يجب فيه على الرسول أن يبلـغ ما أوحي به إليه لكل مدعو إلى رسـالته والإيمان بها، من كتب الله المنزلة وشرائعه المحكمة، مرتبطًا ذلك بالثواب والعقاب في دار الخلود والجزاء.

الإعداد للرسالة أبلغ تربية من الإعداد للنبوة:

وبهـذا يظهر بجلاء أن وحي الرسـالة يتطلب إعدادًا خاصًا في تربية الرسـول - أي رسـول - منذ ميلاده، وتنسمه نسائم الحياة، فيتعهـده الله تعالـى في تخير نسـبه وشـرف قومـه، ويتعهده في نشـأته بنوع من التربية الذاتية، والرعاية الشـخصية، حتى ينشأ نشـأة فاضلة، متكملًا في آدابه وأخلاقه، متحليا بأفضل الفضائل

الإنسانية، متأدبًا بأرفع الآداب السلوكية؛ لأن الله تعالى اختاره ليكون قدوة يُقتَدى بها في جميع ما يأتي وما يذر، وجميع ما ينهى عنه وما يأمر به، وجميع ما يرغب فيه وما يرهب منه.

ولا يمكن أن يجعل الله تعالى مَن أقامه منارًا للهداية والاقتداء به إلا في أكمل صورة من صور الكمال الإنساني في زمنه وعالمه الخاص والعام، وهذا هو معنى قول الله تعالى:

﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾

(الأنعام: ١٢٤)

فهذه الآية الكريمة تفيد صراحة أن وحي الرسالة يتطلب إعدادًا خاصًا في النشأة وتربية السلوك والتحلي بالفضائل الإنسانية والتخلق بالمكارم الخلقية، والتميز بالشمائل الاجتماعية في قومه ومجتمعه، إلى درجة من السمو الروحاني لا يمكن أن تقع مجتمعة لغيره من أمته؛ لأنه بهذه الدرجة من السمو الروحاني يتلقى الرسول وحي ربه الذي يكلفه تبليغه إلى جميع من أرسل إليهم، والتبليغ يحتاج إلى قدر عظيم من العلم بطبائع الخلق، ومداخل النفوس البشرية ومخارجها، في ظواهر أحوالها وبواطنها، وقدر عظيم من العلم بتصاريف الحياة وتقلباتها، وإلى قدر عظيم من الفطنة وزكانة النفس وذكاء العقل، وإلى قدر عظيم من الشجاعة القلبية والتطهر الخلقي، ونظافة السلوك، والتميز بأكرم المكارم، ليكون ذلك داعية لتقبل ما يبلّغه ويدعو إليه.

والذين يقرءون سير الأنبياء والمرسلين يجدون مصداق ما قلنا مبثوثًا في مدارج حياتهم ولا سيما مَنْ قص الله تعالى علينا في القرآن أنباء حياتهم، وتصاريف عيشهم من واقع وجودهم.

شواهد واقعية تبين فضل الرعاية الربانية لحملة الرسالات على فضلها للمنفردين بالنبوة:

ولعل من أبين ذلك ما نجده في قصة إبراهيم خليل الله عليه السلام، وما نجده في قصة موسى كليم الله ورسوله عليه السلام، وفي بيان ما تولاهما الله به من تربيته، وما تعهدهما به من رعايته، منذ طفولتيهما من ألوان التربية والإعداد، وتقويم السلوك، والتوجيه للتحلي بالفضائل، حتى شبَّا وبلغا مبلغ الكمال الإنساني، وبعثهما الله تعالى رسولين هاديين، فبلّغا رسالات ربهما بلاغا كان للتعهد الإلهي في تربيتهما بإعدادهما له أثر قوي ظاهر.

بينما لا نجد مثل تلك الرعاية البالغة المتتابعة في حلقاتها في قصص الذين انفردوا بالنبوة ممن أعدوا إعدادًا تهذيبيًا خاصًا؛ لأن الرسل في أشد الحاجة إلى التأييد الإلهي والرعاية الربانية في مظاهر السلوك لتصديقهم فيما يبلغون من رسالات الله وشرائعه، والتأسي بهم، والناس مختلفون في تفكيرهم ومداركهم، وعاداتهم، وأخلاقهم، ومشاربهم في الحياة.

وهذا الاختلاف يضع الرسل مع القبول تارة، والرد عليهم تارة أخرى، وفيمن يردون عليهم عنادًا أو جهالة، وهذا يقتضي أن يكون الرسل على درجة من الإعداد الروحي الذي تستفرغ

فيه البشرية وتظهر في أطواره شدائد الوحي، وعلى درجة من الصبر على فوادح البلاء، وعلى درجة من قوة الإقناع، وبراعة البيان، ما يجعلهم قادرين على تحمل أعباء التبليغ وأثقال تنزل الرسالات بمراتب وحيها، إيمانا بوعد الله تعالى لهم بالنصر على أعدائهم، كما قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ (الصافات: ١٧١، ١٧٢).

خصائص الرسالة المحمدية تقتضي تميزًا وعناية في الإعداد الفطري والسلوكي على سائر الرسالات:

وإذا كان هذا هو الواقع في حياة جميع رسل الرسالات الإلهية قبل رسالة محمد ﷺ وهي رسالات خاصة لقوم أو جيل من الناس مخصوصين، جاءت بشرائع خاصة لزمن مخصوص، فهو أوجب ما يكون في واقع الرسالة الخاتمة الخالدة، العامة الشاملة، رسالة محمد ﷺ، خاتم الأنبياء وآخر المرسلين؛ لأن رسالته ﷺ في عمومها زمنًا ومكانًا وأجيالًا، وتشريعًا، ونظامًا للحياة تتضاعف حاجتها إلى التميز على سائر الرسالات الإلهية في طريقة إعداد حامل أمانتها، المصطفى لتلقي وحيها، وتَنَزُّل كتابها الكريم، وتبليغ شرائعها وأحكامها، ونشر آدابها، وإقامة نظمها الاجتماعية في حياة الناس، والجهاد في سبيل تأمين سيرها حتى تصل دعوتها إلى الداني والقاصي، وتعم هدايتها جميع من تبلغه دعوتها.

وقد سبق لنا أن صورنا حالة العالم المدعو إلى الإيمان برسالة محمد ﷺ، وما كان عليه من ضلالات وحماقات، وجهالات في العقيدة والأخلاق، وانحرافات في السلوك والنظم الاجتماعية، وما كان يشيع فيه من مظالم تسود حياة أممه وشعوبه، ودوله وممالكه، يستعبد فيها الأقوياء الضعفاء، ويستغل الأغنياء الفقراء، ويستبيح الطغاة حرمات الإنسانية انتهاكا لمقدسات الحياة الخاصة والعامة، وأن عموم رسالة محمد ﷺ وختمها للرسالات الإلهية يجعلها الوسيلة التي لا وسيلة غيرها لإصلاح الحياة، وتبديل هذه المفاسد والشرور، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

ومعنى ذلك أن رسالة محمد ﷺ جاءت لتحوِّل الإنسانية عن واقعها المظلم الظالم إلى حياة مضيئة مشرقة، تقوم معالمها على العدالة والتراحم، وترفع فيها منائر العلم والمعرفة، والهدى والإصلاح، حياة مليئة بالخير والبر، معتمدة على الإخاء الإنساني والمحبة والمواساة والتعاون.

ومن هنا كانت نبوته ﷺ متقدمة على رسالته زمنًا ووحيًا، لتكون أهم مرحلة من مراحل إعداده لتلقي وحي الرسالة، وتحمل أمانة تبليغها، ونشر دعوتها؛ لأن نبوته ﷺ بالنسبة لرسالته كانت تمهيدًا روحيًا جعلها معبرًا إلى آفاق وحي اليقظة الذي جعله الله تعالى من خصائص تنزل القرآن وبدء الرسالة.

أما إعداده ﷺ إعدادًا إنسانيًا جامعًا لجميع مراتب الكمال البشري، فيتجلى في فَطْره على صفاء الخليقة، وجَبْله على أكرم

مكارم الفضائل، وتنشئته على أفضل الشمائل، وأحمد الأخلاق، وفـي معرفته بالله تعالى معرفة عصمته منذ نشـأته عن التدلي إلى مفاسد الجاهلية وشـرورها، وبغضت إليه عقائدها، وجعلت منه مثلًا مضروبًا في المكارم بين قومه، وفي بلده ومجتمعه.

وبهـذه المـكارم التـي كانت خلقًـا له فـي حياته كلهـا رأت فيه السـيدة الجليلة خديجة رضي الله عنها شـواهد على صدق تطلعاتها المتوسمة، وفراستها الصادقة، وأنه ﷺ كان موضع الرعاية الربانية.

شـدائد وحي الرسـالة كانـت فيصلا بين مرحلـة انفراد النبوة ومرحلة ميلاد الرسالة:

ومن هاهنا كانت شـدائد وحي الرسـالة التي لقيها رسـول الله ﷺ فـي مفاجآت الغار فيصلا بين نبوتـه في حال انفرادها بزمنهـا ومراتب وحيها التـي لم تبلغ مرتبة منها في الشـدة، واستفراغ البشـرية، والإعداد الروحاني الأعلى، ما بلغته أول مرتبـة بـدأ بها وحي الرسـالة في أول لقاء يقظـي تم بين أمين الوحي جبريل عليه السلام وبين النبي ﷺ.

وقـد كانت مفاجأة هذا اللقاء آخر نقطة انتهى عند بدئها خط انفراد النبوة بانتهاء زمنها مع انتهاء قرن إسـرافيل به ﷺ، وكان مـا وقع في هذا اللقاء من الأحداث والمفاجآت الإعجازية، وتنزل أول مـا نزل مـن آيات القـرآن الكريم هو أول نقطـة بدأ بها خط رسالة محمد ﷺ بالهدى ودين الحق، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

تحقيق أول ما نزل من القرآن

كان أول ما نزل من آي القرآن الكريم خمس آيات افتتح الله بها رسالة محمد ﷺ وهي الآيات التي افتتحت بها سورة العلق

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾

(العلق : ١- ٥).

بهذه الآيات بدأت رسالة محمد ﷺ، فكانت استهلالاً متوافقًا وهذه الرسالة الخاتمة الخالدة.

وبهذه الآيات بدأ نزول القرآن الكريم، فكانت أول آيات من الذكر الحكيم أقرأها أمين الوحي جبريل عليه السلام محمدًا خاتم النبيين ﷺ في أول لقاء تم بينهما في غار حراء.

وبهذه الآيات وضع الله تعالى معالم الرسالة الإلهية الخاتمة الخالدة في عمومها المطلق وشمولها الأعم، مبينًا أنها رسالة العقل والعلم، وهما أعظم مِنن الله تعالى على الإنسان، وهو خِيرته من خلقه، وأكرمهم عليه، فكانت هذه الآيات كالعنوان للكتاب، والطرة للإطار، والغرة في جبهة الإيحاء.

وبهذه الآيات، وجَّه الله تعالى أمة محمد ﷺ إلى ما يجب أن يكون هدفها في حياتها من تبليغ رسالة نبيها ﷺ، هذا الهدف الذي جعله الله منار الهداية في هذه الرسالة، هو هدف

العلم والتعلم، وجعل القلم حارسه وحافظه ومسجله في سجلات الحياة، وجعل لكل جيل من أجيال الإنسانية نصيبًا منه، ترتفع به الحياة إلى آفاق ما قدِّر لها من المعرفة والتقدم.

وبهذه الآيات، وما تضمنته من الإشادة بالعلم والقلم أبان الله تعالى لأمة الإسلام عن وسيلة تبليغها رسالتها إلى القاصي والداني في أقطار الأرض، لتعلم أن العلم والتعلم والكتابة بالقلم هي الوسيلة التي لا وسيلة غيرها لتبليغ هذه الرسالة.

وبهذه الآيات أُعطيت الأمة الإسلامية مفاتيح الإصلاح والهداية، لِتَعْلَم أول ما تعلم أنه لا إصلاح بغير علم ومعرفة، فليس مع الجهالة خير، والجهل كله شر وفساد، ولتعلم بأن الهداية إلى معرفة الحق، واعتناقه، والحرص عليه، وإقامة منائره، والدعوة إليه لا تكون إلا مع العلم، ولا تتحقق آثارها في الحياة إلا بالعلم، والعلم لا ينمو وينتشر إلا إذا قيده القلم ونشره وبيَّنه وأعلن عنه.

وبهذه الآيات أخذت الأمة الإسلامية مقاليد خلافة الله في الأرض، لتقيم عليها موازين العدالة بين من وما تظلهم الحياة بظلها الوارف من الناس والأشياء؛ لأن خلافة الله في أرضه حينما تَسربَلَها الإنسانُ ليقوم بأمانة حملها، وأبت السماوات والأرضون والجبال أن تحملها، إنما كان ذلك خصيصة للإنسان؛ لأنه منبع العلم ومهبط التعلم، فهو قد عَلِم فعلَّم، وكان العلم مصدر تفوقه على الملائكة المكرمين.

مواطـن الإعجاز الحسـي والمعنـوي وبراعـة البيان في أسلوب هذه الآيات:

وقـد جاءت هذه الآيات ـ وهي أول آيات تنزلت من سـماء الوحـي ـ تحمـل في كل كلمة مـن كلماتها أعظـم مظهر من مظاهـر التحدي، ليكـون الإعجاز البياني في هداية الرسـالة، ومعانيهـا، وحقائقهـا، وتوجيهاتها هو القوة التي تدفع سـير الرسالة إلى آفاق الفكر العليا في أقطار الأرض.

وبهـذا كانـت هذه الآيـات هي المعجـزة الأولى للرسـالة الخاتمـة الخالـدة، التـي تحدت العقـولَ والقلـوب والأرواح والألسن والقرائح، أن يأتوا بمثلها هداية، وأسلوبًا، وتنزلًا.

ففيها الإعجاز الحسـي يتراءى محققًا في واقع الحياة، رأي عين، وسـمع أذن، بوجود ما هو في قوانين الطبيعة، ومألوف الحيـاة من أمحل المحـال، ذلك أن يقرأ من لم يكن قارئًا قط، إعجازًا لا تعلمًا.

وفيهـا الإعجـاز الفكري الذي يواكب فـي وجوده الإعجاز الحسـي، يجعل قراءة الأمي الذي لم يثافـن عالمًا قط[٤]، ولا جلس مجلـس متعلم قط، إعجازًا يقوم على الاسـتناد إلى قوة الله تعالـى وقهـره لظواهـر الأسـباب والعلل، وإذابـة العلائق بينها وبين مسبباتها ومعلولاتها فيما يخيل للعقول والأفهام، فكأنـه قيـل للنبي الأمـي ﷺ: أنت لا تقـرأ بقوتك وحولك،

(٤) يثافن: يلازم. (المجلة)

ولا تقرأ بتعلُّم كما يقرأ سائر القارئين، وإنما أنت تقرأ باسم ربك الذي تولاك بخصائص تربيته، وأعدك لحمل أمانة أعظم رسالاته، فهو الذي يقرئك إعجازًا لا تعلمًا ودرسًا، بل خلقًا وإبداعًا؛ لأنه الخالق، والخلق إبداع في الإيجاد لما ليس على مثال في الوجود الواقعي، فإذا تعلق الخلق بأبدع ما أبدع الخالق، وأحسن ما قومت قدرته في عوالم الحس والإبداع ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ وخلق الإنسان بما فيه من آيات التكوين وبدائع التركيب الظاهر والباطن التي لا يحيط بها علم العلماء، ولا تكشفها مناظير المكبرات، هو الآية الكبرى على اقتدار الألوهية وإبداعها اقتدارًا لا يدخل في حيز الإمكان لأي مخلوق.

ثم تأتي في الآيات معجزة المعجزات التي يدندن حولها العلم بكل بحوثه ومكتشفاته وآلاته ومخابره فيرتد عنها حسيرًا، ليس في يده من حقيقتها شيء، تلك هي الإخبار عن الأصل الذي منه أنشئ الإنسان، والبذرة التي منها نبت هذا الكائن الذي لم يخلق الله تعالى أحسن ولا أقوم منه ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ وليقل العلم في تفسير (العلق) ما يقول، وليكثر من البحث والدوران حول كشوفه، فلن يصل ـ إن وصل ـ إلى غير ما وصل إليه إخبار محمد النبي الأمي ﷺ في أول كلمة نزلت عليه وخوطب بها في مطلع رسالته، ليبلغها إلى

الإنســان تعليمًــا وتعلُّمًــا ، ليعرف ربه الذي خلقــه فأبدعه في أحســن تقويم من أدنى ما يتصور منــه الإيجاد لأعظم كائن في هذه الحياة .

ثم تأتي الآيات بعد ذلك ببيان معالم هذه الرسالة الخالدة ، الخاتمة لرســالات الله تعالــى ، ومعالمها هي العلم بكل ما فيه من هداية ونور ومعرفة .

منهج الرســالة في إعظام شــأن العلم بأوســع معانيه وشتى فنونه ومعارفه:

والعلم لا ينزل على الناس غيثًا من الســماء يتقاطر عليهم ، فيتلقونــه عبًا ، ولكنه يخضع لقوانين ســنن الله تعالى في نظام الحيــاة ، وفي متعارف هذه الســنن الإلهية أن العلم يتنزل على الناس من ســماء التعلم والفكر ، وقد جَعَلَتْ هذه السنن القلمَ آلة العلم التي يقيد بها ويسجل ، وبهذا التقييد يتلقى الحاضر حصائــل الفكر الماضي ، ويمد الحاضر بهذه الحصائل الفكر المستقبل الذي لا يقف عند حدود هذه الحصائل ، ولكنه يجعل منها مادة تربط بين أطوار الفكر وتوثباته ، ويتخذ منها مدارج إلــى آفاق المجهول المحجب ، ليكشــف عنه أغطية الجهالة ، ويجعل منه أساسًا لمرحلة فكرية جديدة ، يستزيد فيها الفكر الإنساني معرفة بكثير من حقائق الوجود ، ويتضاعف طموحه إلــى كل جديد من ألوان المعرفــة . والمعارف الكونية لا نهاية لها .

وهكــذا يقود العلــم ـ الذي جعله الله بشــتى فنونه، واختلاف ألوانه أعظم معالم الرســالة الخاتمة الخالدة، رسالة محمد النبي الأمي ﷺ ـ العقل الإنساني إلى آفاق من التقدم الفكري، لا تقف عنــد غاية، ولا تعرف لها نهاية، وهذا هو ســر الأســرار في خلود هذه الرســالة، ووفائها بأقصى مطالب الحياة ورغائبها على مدى مرور الأزمان وتوالد الأجيال، واختلاف المنازل والأوطان.

والله تعالى إذ يخبر نبيه الأمي في هذه الآيات التي أشــرقت مــن أفقها شــمس رســالته أنه أقرأه بغيــر تعلم ولا آلــة إعجازًا تبــدأ بــه رســالته، قد جعل من ســنن الحيــاة العامــة أن يكون العلــم بالتعلم، وأنه جعل القلم آلة التعلم، ووســيلة قيد العلم وتسجيله وصيانته عن التبدد والزوال.

فليكــن العلــم في دائرة ســنن الله في الحيــاة وقوانينها هو هــدف أمة الإســلام من تبليغها رســالة الإســلام؛ لأن العلم هو العنوان الأعظم على خلود هذه الرسالة، وهو العنصر الحيوي فــي تكوين حقيقتها الهادية الراشــدة، وهو الآية الكبرى على صدقها وصدق رسولها ﷺ.

منهج الرسالة في إعظام العلم إنما يعني العلم المؤمن:

والعلــم المؤمن باقتــدار رب العالمين الذي خلق الإنســان وربَّاه علــى موائد كرمه وفضله إذا أخذ بزمــام الحياة، وقادها بســلطان هدايتــه أدرك بها أقصــى غايات الرشــد والإصلاح، وجعل مفاتيح رقيهــا بيد الذين يؤمنون ويعلمــون ويُعلِّمون،

وهؤلاء هم خلفاء الله تعالى في أرضه، يقوِّمون أود الحياة، وينصبون على منحنيات جوادها موازين الحق والعدل ومنائر الهداية، حتى لا تزلّ بالناس قدم، ويضعون فوق روابي مهايعها مصابيح المرحمة والمواساة[٥]، وتعاطف الإخاء الودود، لتقوم المحبة بينهم مقام قانون المحاسبة والجزاء.

أما العلم الكفور الذي لا يعرف يد الله على الحياة والأحياء، أو هو يعرفها ولكنه يتنكر لها جحودًا واستكبارًا عنيدًا يكنفه الطغيان، فهو ليس مما ينطوي تحت طائلة هذا الامتنان الأكرم؛ لأن هذا العلم الكفور أخذ عناصر وجوده من طينة الخبال والتدمير، فهو بمعرض الدثور والبوار، طال الزمن أو قصر، والآخرة عند ربك للمتقين.

وقد جاءت هذه الحقائق العظمى والمعاني السامية مصورة في أبرع صورة بيانية، سيقت بأسلوبها المعجز، لتتساوق في براعة صياغتها مع سمو مقاصدها.

اتساق الأسلوب ودقة التعبير في تركيب الآيات يصور التناسب الحسي والمعنوي في الأداء:

فالتناسب الحركي في صورتيه الحسية والمعنوية بين القراءة والتربية في قوله:

---

(٥) المهيع: الواسع من الأرض. (المجلة)

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ (العلق: ١)

إعجاز بياني، بصورة ربط الفعل (اقرأ) بمتعلق خاص هو اسم (الرب) دون غيره من أسماء العزة والقهر، مما يدل على أن التناسق بين الفعل والاسم المتعلق به بما في معناهما من الحركة هو مناط الإعجاز.

والإضافة الخاصة لضمير المخاطب المخصوص بهذا الإنعام الأكرم، وهو النبي الأمي محمد ﷺ إعجاز بياني يصوره اقتضاء الخطاب شهودًا لمخاطب مظاهر الجود في الإنعام.

ووصف الاسم الكريم بإضافته الخاصة بالخالقية بأسلوب الجملة الموصولية بما فيها من تأكيد الإسناد وتقريره إعجاز بياني يصوره التناسب الأكمل بين معنى الخالقية والتربية التي يُشعِر اسم (الرب) بها، مع ما يفيده إطلاق الخالقية من عموم شمولي في الاقتدار الإلهي في أخص صفات الربوبية من الإبداع والإيجاد.

وإعادة فعل الخلق بعد ذلك مقيدًا بتعلقه بالإنسان بكل ما فيه من آيات وعجائب في التكوين، إعجاز بياني يصوره تخصيص الإنسان بجعله نموذج الإبداع دون غيره من سائر المبدعات الإلهية، للتناسب المتكامل بينه وبين ما هو محور الدائرة في الإبداع هنا، وهو العلم والتعلم.

وذكر منشأ تخليق الإنسان في قوله تعالى:

﴿مِنۡ عَلَقٍ﴾ لتأكيد مظاهر الاقتدار في الإبداع إعجازٌ بياني

يصوره تقريب ما هو أبعد تصورًا في دائرة الإمكان العقلي.

وإعادة الفعل (اقرأ) واستئناف الجملة الاسمية بعده ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ بذكر اسم (الرب) بإضافته التخصيصية، ووصفه بأعلى منازل الكرم وذروته بصيغة التفضيل إعجازٌ بياني يصوره التناسق بين المعاني وقوالبها الأسلوبية التي أخرجت في إطارها، مع ما يفيد استئناف الجملة الاسمية بتأليفها الخاص ومجيئها بعد الفعل مباشرة مع الإشعار بسببية مضمونها لتحقيق مضمون الفعل (اقرأ).

ووصف الاسم الكريم بإضافته الخاصة إلى التعليم بأسلوب الجملة الموصولة ـ أيضًا ـ المقررة لمضمونها على أبلغ وجه، مع ذكر آلة التعليم ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾

إعجاز بياني، يصوره ما ينطوي تحت الإيجاز المعبر عن كثرة المعاني والحقائق من الروعة فيما هو كالحجة البرهانية على الاقتدار الإلهي في هذا المقام الأكرم.

وتختتم الآيات بقوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾

وفيه إعجاز بياني يصوره ما اشتمل عليه من إجمال أبهمت فيه الصور والحقائق التي يعلمها الإنسان، وهذه الصور والحقائق من الكثرة والتتابع بما لا يمكن أن تحل تحت إحصاء أو حصر؛ لأنها مستمرة الوجود على مدى توارد الأجيال و(تطور) الفكر، واختلاف الأحداث والنوازل، وتوالي الكشوف تبعًا

لتحرك العقل نحو التعرف على عناصر الكون ومظاهر الطبيعة، تحقيقًا للإفادة من نعمة تسخير الكون للإنسان.

وفي التعبير بقوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ هكذا بالفعل الماضي المفيد لتحقيق وقوع التعليم نظرًا إلى ما هو مركوز في طبيعة الإنسان وفطرته المستعدة لتلقي ما يأتيها من صور الأفكار والأحداث مهما تكن كثرتها وعظمتها ـ إعجاز بياني يصوره جعل الإنسان مُعلّمًا لكل ما لم يعلم، إقامة للاستعداد الفطري مقام الواقع المتحقق في وجود الحياة.

وهذا الاستعداد الفطري هو المنبع الذي يمد الإنسان بعلم ما لم يعلم على مدى مرور الحياة في فلك الأحداث والوقائع، وهو الذي يكشف الأغطية، بجَلْو سُحب الحجب عن المجهول الذي لا بد أن يعلم ويظهر.

كلام ابن حجر في إبداء حكمة أولية نزول هذه الآيات:

وقد حام حول حمى كشف أسرار الحكمة الإلهية في افتتاح نزول القرآن الحكيم، وابتداء رسالة النبي الأمي محمد ﷺ بهذه الآيات من أجرى قلمه في حلبة سباقها من القدامى والمحدثين، فأشار بعضهم إلى قطرات من غيثها، يقول الإمام الحافظ ابن حجر في الفتح: والحكمة في هذه الأولية أن هذه الآيات الخمس اشتملت على مقاصد القرآن، ففيها براعة الاستهلال، وهي جديرة أن تسمى عنوان القرآن؛ لأن عنوان الكتاب يجمع مقاصده بعبارة وجيزة في أوله.

وبيان كونها مشتملة على مقاصد القرآن أن هذه المقاصد تنحصر في علوم التوحيد والأحكام والأخبار، وقد اشتملت الآيات على الأمر بالقراءة، والبداءة بباسم الله، وفي هذه الإشارة إلى أصول الدين، وفيها ما يتعلق بالأخبار من قوله:

﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ . اهـ .

رأي الأستاذ الإمام محمد عبده في حكمة افتتاح نزول القرآن وابتداء الوحي بهذه الآيات:

ويقول الأستاذ الإمام محمد عبده في تفسير سورة العلق: إنه لا يوجد بيان أبرع ولا دليل أقطع على فضل القراءة والكتابة والعلم بجميع أنواعه من افتتاح الله كتابه وابتداء الوحي بهذه الآيات الباهرات، فإن لم يهتد المسلمون بهذا الهدى، ولم ينبههم النظر فيه إلى النهوض إلى تمزيق تلك الحجب التي حجبت عن أبصارهم نور العلم، وكسر تلك الأبواب التي غلّقها عليهم رؤساؤهم وحبسوهم بها في ظلمات الجهل، وإن لم يسترشدوا بفاتحة هذا الكتاب المبين ــ أي فاتحة تنزله، وهي أوائل سورة العلق ــ ولم يستضيئوا بهذا الضياء الساطع فلا أرشدهم الله أبدًا. اهـ .

وهذا كلام واضح غاية الوضوح، وصريح إلى أقصى حدود الصراحة في القطع بأن هذه الآيات الخمس التي افتتحت بها سورة العلق هي مفتتح كتاب الله، وابتداء وحي القرآن الكريم وهي فاتحة الكتاب المبين ــ أي فاتحة نزوله ــ فهي أول آيات

نزلن منه إطلاقًا، فلم ينزل منه شيء قط، لا سورة الحمد لله فاتحة المصحف في ترتيب التلاوة، ولا أوائل سورة (المدثر) كما تُوهِّم في حديث جابر المتفق على صحته، ولا غير ذلك من آيات القرآن وسوره.

وقد صرح الأستاذ محمد عبده بما يرفع كل شك عن رأيه في ذلك؛ إذ قال في مطلع تفسير سورة العلق: وفي هذا ـ أي سياق حديث عائشة رضي الله عنها في بدء الوحي ـ دلالة على أن

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾

هو أول خطاب إلهي وُجِّه إلى النبي ﷺ، وهذا لا ينافي أن أول سورة نزلت كاملة بعد ذلك هي أم الكتاب كما بيَّناه في تفسيرها. اهـ.

وهذا مخالف تمام المخالفة لما ذكره الأستاذ رشيد رضا في تفسير المنار نقلًا عن أستاذه الإمام محمد عبده، من أن الأستاذ الإمام محمد عبده قد رجَّح أن أول ما نزل على الإطلاق سورة فاتحة الكتاب ـ أي ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

(الفاتحة: ٢)

ولم يستثن قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾

وكلام الأستاذ الإمام محمد عبده يحمل الدلالة الواضحة على أن تفسيره جزء (عم) متأخر عن تفسيره لبعض القرآن الكريم مبتدئًا من فاتحة المصحف ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾

وهذا التفسير العام هو الذي ينقله أو يلخصه، أو يمثله في عبارته السيد رشيد رضا في تفسير المنار، وهذا بين في قول الأستاذ الإمام فيما نقلناه عنه: وهذا لا ينافي أن أول سورة نزلت كاملة بعد ذلك ـ أي بعد نزول أوائل سورة العلق ـ هي أم الكتاب، كما بيَّناه في تفسيرها.

والأستاذ رشيد ـ وهو أقوم تلاميذ الإمام بفهم كلامه ومراميه ـ يؤكد رأيه فيما فهمه من كلامه من أنه يقول بأولية نزول سورة الفاتحة

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ إطلاقًا دون استثناء أوائل سورة العلق أو غيرها من آيات وسور القرآن، وفي ذلك يقول في تفسير المنار: أما الأستاذ الإمام فقد رجَّح أن أول ما نزل على الإطلاق سورة الفاتحة ـ أي

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ ولم يستثن قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾

سياحة فكرية للإمام محمد عبده في إبداء حكمة أولية نزول أم الكتاب إطلاقًا:

ثم قال الأستاذ رشيد رضا: ونزع ـ أي الأستاذ الإمام محمد عبده ـ في الاستدلال على ذلك منزعًا غريبًا في حكمة القرآن

وفقه الدين، فقال ما مثاله: ومن آية ذلك أن السنة الإلهية في هذا الكون، سواء أكان كون إيجاد، أو كون تشريع - أن يُظهر سبحانه الشيء مجملًا ثم يتبعه التفصيل بعد ذلك تدريجيًا، وما مثل الهداية الإلهية إلا مثل البذرة والشجرة العظيمة، فهي في بدايتها تحتوي على جميع أصولها ثم تنمو بالتدرج، حتى تنبثق فروعها بعد أن تعظم دوحتها، ثم تجود عليك بثمرها.

والفاتحة مشتملة على مجمل ما في القرآن، وكل ما فيه تفصيل للأصول التي وضعت فيها، ولست أعني بهذا ما يعبرون عنه بالإشارة، ودلالة الحروف كقولهم: إن أسرار القرآن في الفاتحة وأسرار الفاتحة في البسملة، وأسرار البسملة في الباء، وأسرار الباء في نقطتها، فإن هذا لم يثبت عن النبي ﷺ وأصحابه عليهم الرضوان، ولا هو معقول في نفسه، وإنما هو من مخترعات الغُلاة الذين ذهب بهم الغلو إلى سلب القرآن خاصيته، وهي البيان.

وبيان ما أريد هو أن ما نزل القرآن لأجله أمور:

أحدها: التوحيد؛ لأن الناس كانوا كلهم وثنيين، وإن كان بعضهم يدعي التوحيد.

ثانيها: وعدُ مَن أخذ به وتبشيره بحسن المثوبة، ووعيد مَن لم يأخذ به وإنذاره بسوء العقوبة، والوعد يشمل ما للأمة وما للأفراد، فيعم نِعم الدنيا والآخرة وسعادتهما، والوعيد كذلك يشمل نقمهما وشقاءهما، فقد وعد الله المؤمنين

بالاستخلاف في الأرض، والعزة والسلطان والسيادة، وأوعد المخالفين بالخزي والعار في الدنيا، كما وعد بالجنة والنعيم، وأوعد بنار الجحيم في الآخرة.

ثالثها: العبادة التي تحيي التوحيد في القلوب، وتثبته في النفوس.

رابعها: بيان سبيل السعادة، وكيفية السير فيه، الموصل إلى نعيم الدنيا والآخرة.

خامسها: قصص من وقف عند حدود الله تعالى، وأخذ بأحكام دينه، وأخبار الذين تعدوا حدوده، ونبذوا أحكام دينه ظِهْرِيًّا، لأجل الاعتبار، واختيار طريق المحسنين ومعرفة سنن الله في البشر.

هذه الأمور التي احتوى عليها القرآن، وفيها حياة الناس وسعادتهم الدنيوية والأخروية. والفاتحة مشتملة عليها إجمالًا بغير ما شك ولا ريب.

فأما التوحيد ففي قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لأنه ناطق بأن كل حمد وثناء يصدر عن نعمة ما فهو له تعالى، ولا يصح ذلك إلا إذا كان سبحانه مصدر كل نعمة في الكون، تستوجب الحمد، ومنها نعمة الخَلق والإيجاد والتربية والتنمية، ولم يكتف باستلزام العبارة لهذا المعنى فصرح به بقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

ولفظ (رب) ليس معناه المالك والسيد فقط، بل فيه معنى التربية والإنماء، وهو صريح بأن كل نعمة يراها الإنسان في نفسه وفي الآفاق منه عزّ وجلّ، فليس في الكون متصرف بالإيجاد ولا بالإشقاء والإسعاد سواه.

التوحيد أهم ما جاء لأجله الدين، ولذلك لم يكتف في الفاتحة بمجرد الإشارة إليه، بل استكمله بقوله:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥)

فاجتث بذلك جذور الشرك والوثنية التي كانت فاشية في جميع الأمم، وهي اتخاذ أولياء من دون الله، تُعتقد لهم السلطة الغيبية ويدعون لذلك من دون الله ويستعان بهم على قضاء الحوائج في الدنيا، ويتقرب بهم إلى الله زلفى، وجميع ما في القرآن من آيات التوحيد ومقارعة المشركين هو تفصيل لهذا الإجمال.

وأما الوعد والوعيد: فالأول منهما مطوي في

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ (الفاتحة: ١)

فذكر الرحمة في أول الكتاب ـ وهي التي وسعت كل شيء ـ وعد بالإحسان، وقد كررها مرة ثانية تنبيهًا لنا على أن أمره إيانا بتوحيده وعبادته رحمة منه سبحانه بنا؛ لأنه لمصلحتنا ومنفعتنا.

وقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ يتضمن الوعد والوعيد معًا؛ لأن معنى الدين الخضوع، أي أن له تعالى في ذلك اليوم السلطان المطلق، والسيادة التي لا نزاع فيها، حقيقة لا ادعاء، وأن العالم كله يكون فيه خاضعًا لعظمته ظاهرًا وباطنًا، يرجو رحمته، ويخشى عذابه، وهذا يتضمن الوعد والوعيد.

أو معنى الدين الجزاء، وهو إما ثواب للمحسن، وإما عقاب للمسيء، وذلك وعد ووعيد وزِد على ذلك أنه ذكر بعد ذلك ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ وهو الذي مَن سلكه فاز، ومَن تنكبه هلك، وذلك يستلزم الوعد والوعيد. وأما العبادة فبعد أن ذكرت في مقام التوحيد بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾

أوضح معناها بعض الإيضاح في بيان الأمر الرابع الذي يشملها ويشمل أحكام المعاملات وسياسة الأمة بقوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ أي إنه قد وضع لنا صراطًا سيبينه ويحدده، وتكون السعادة في الاستقامة عليه، والشقاوة في الانحراف عنه، وهذه الاستقامة عليه روح العبادة، ويشبه هذا قوله تعالى:

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾

(العصر: ١- ٣)

والفاتحة بجملتها تنفخ روح العبادة في المتدبر لها، وروح العبادة هي إشراب القلوب خشية الله وهيبته والرجاء لفضله، لا الأعمال المعروفة من فعل وكف من حركات اللسان والأعضاء، فقد ذكرت العبادةً في الفاتحة قبل ذكر الصلاة وأحكامها، والصيام وأيامه، وكانت هذه الروح في المسلمين قبل أن يكلفوا هذه الأعمال البدنية وقبل نزول أحكامها التي فصلت في القرآن تفصيلًا ما، وإنما الحركات والأعمال مما يتوسل به إلى حقيقة العبادة، ومنح العبادة الفكر والعبرة.

وأما الأخبار والقصص ففي قوله تعالى:

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ تصريح بأن هناك قومًا تقدموا وقد شرع الله شرائع لهدايتهم، وصائح يصيح: ألا فانظروا في الشئون العامة التي كانوا عليها، واعتبروا بها، كما قال تعالى لنبيه يدعوه إلى الاقتداء بمن كان قبله من الأنبياء:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾

(الأنعام: ٩٠)

حيث بيّن أن القصص إنما هي للعظة والاعتبار، وفي قوله تعالى: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾

تصريح بأن غير المنعم عليهم فريقان، فريق ضل عن صراط الله، وفريق جاحد وعاند مَن يدعو إليه، فكان محفوفا بالغضب الإلهي والخزي في هذه الحياة الدنيا.

وباقـي القرآن يفصل لنا في أخبار الأمـم هذا الإجمال على الوجه الذي يفيد العبرة، فيشـرح حال الظالمين الذين قاوموا الحـق عنادًا، والذين ضلـوا فيه ضلالاً، وحـال الذين حافظوا عليه وصبروا على ما أصابهم في سبيله.

فتبين من مجموع ما تقدم أن الفاتحة قد اشتملت إجمالاً على الأصـول التي يفصلهـا القرآن تفصيلًا، فـكان إنزالها أولًا موافقًا لسـنة الله تعالى في الإبداع، وعلـى هذا تكون الفاتحة جديرة بأن تسـمى (أم الكتـاب) كما تقول: إن النـواة أم النخلة، فإن النواة مشـتملة على شـجرة النخلة كلها حقيقة، لا كمـا قال بعضهم: إن المعنى في ذلك أن الأم تكون أولًا، ويأتي بعدها الأولاد. اهـ.

ما ساقه السيد رشيد رضا في تمثيل كلام شيخه الأستاذ محمد عبده، وتصوير فكرته في إبداء حكمة أولية نزول الفاتحة إطلاقاً دون استثناء شيء من آي القرآن وسوره، لا أوائل ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ كمـا هو صريح حديث عائشـة في بدء الوحـي، ولا أوائل (المدثـر) كما هو صريح حديث جابر عند مسـلم والبخاري رحمهما الله تعالى.

نهـج الإمام محمـد عبده فـي بيان حكمـة أولية نزول الفاتحة نهج شعري يلفه الخيال والرمزية:

هـذا النهج الذي نهجه الإمام محمد عبـده، وحاول فيه أن يجعل سورة الفاتحة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

متضمنة إجمالًا لجميع ما احتواه القرآن المجيد من الحقائق والمعاني التشريعية والأصول العقدية والنظم الاجتماعية، تفصيلًا في سوره وآياته ليثبت بذلك أن سورة الفاتحة أول ما نزل إطلاقًا لا يستثني أوائل سورة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ ولا غيرها - نهجٌ شعري، يلفه الخيال من جوانبه، وهو لا يخرج في مباديه ونهاياته عن مذهب (الدمجيين) الذين يُكرهون الألفاظ والعبارات تعسفًا لاستخراج معاني متخيلة في حنايا عواطفهم، فيُدمجون الحقائق المتناثرة في عبارات وأساليب وألفاظ قد تكون متباعدة المواقع في مناسباتها، ولكنها قد تكون قريبة النسب لبعضها في معانيها وأهدافها.

وهؤلاء (الدمجيون) هم الذين زعموا على علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: لو شئت أن أوقر سبعين بعيرًا من تفسير أم القرآن لفعلت.

والذين زعموا هذه القالة لم يسلكوا في تبيينها مسلك الإشاريين الغلاة الذين ذهب بهم الغلو إلى سلب القرآن خاصيته البيانية في تقحمهم على حماه، واخترقوا قولهم: إن أسرار القرآن في الفاتحة، وأسرار الفاتحة في البسملة، وأسرار البسملة في الباء، وأسرار الباء في نقطتها، مما لا يعقل في نفسه، ولا يتصور في دائرة الخيال، وإنما سلكوا في تبيين ما نُسب إلى علي رضي الله عنه مسلك بيان المعاني المختلفة، والحقائق المتعددة في سورة الفاتحة ولم يقولوا - كمال

قال الأستاذ محمد عبده- : إن (الفاتحة) تتضمن جميع ما في القرآن من الحقائق والمعاني، ولكنهم قالوا: إن (سورة الفاتحة) في إيجازها المعجز تتضمن - إذا بسطت عبارتها وفصلت حقائقها ومعانيها - الكثير من المعاني والحقائق الإيمانية، والأحكام الشرعية.

قصة مزعومة تنسب إلى علي رضي الله عنه تفسيرًا دمجيًّا لسورة أم الكتاب:

يقول الحافظ جلال الدين السيوطي في (الإتقان): إن الإمام ابن أبي جمرة قال في توضيح معنى ما نُسب إلى علي رضي الله عنه من أنه لو شاء لأوقر سبعين بعيرًا في تفسير (سورة الفاتحة)، قال ابن أبي جمرة: وبيان ذلك أنه إذا قال: الحمد لله رب العالمين، يحتاج إلى تبيين معنى الحمد، وما يتعلق بالاسم الجليل الذي هو الله، وما يليق به من التنزيه، ثم يحتاج إلى بيان العالَم وكيفيته على جميع أنواعه وأعداده، وهي ألف عالَم، أربع مئة في البحر، وست مئة في البر فيحتاج إلى بيان ذلك كله، فإذا قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

يحتاج إلى بيان الاسمين الجليلين، وما يليق بهما من الجلال، وما معناهما، ثم يحتاج إلى بيان جميع الأسماء والصفات، ثم يحتاج إلى بيان الحكمة في اختصاص هذا الموضع بهذين الاسمين دون غيرهما.

فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾

يحتاج إلى بيـان ذلك اليوم، وما فيه من المواطن والأهوال وكيفية مستقرِّه، فإذا قال:

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ يحتاج إلى بيان المعبود وجلالته، والعبادة وكيفيتها وصفتها، وأدائها على جميع أنواعها، والعابد في صفته، والاستعانة وأدائها وكيفيتها، فإذا قال: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾

إلى آخر السورة، يحتاج إلى بيان الهداية ما هي، والصراط المستقيم وأضداده، وتبيين المغضوب عليهم والضالين، وما يتعلق بهذا النوع، وتبيين المرضي عنهم وصفاتهم وطريقتهم.

فعلى هذه الوجوه يكون ما قاله عليٌّ من هذا القبيل.

وقصة إيقار علي رضي الله عنه سبعين بعيرًا في تفسير أم الكتاب ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

لو شاء؛ لا يُعرف لها سند يعول عليه، فهي أشبه أن تكون من تكذب الروافض على الإمام رضي الله عنه، فلا مقام لها في بحث علمي، يفسر به القرآن الحكيم.

وبيان ابن أبي جمرة لما يمكن أن يحقق به ما زُعم على علي رضي الله عنه كلام لا يخرج عن طرائق الدمجيين الذين

يتكثرون من قضايا الخيال المتشابكة بخيوط الاستطراد، واجترار المسائل لأدنى مناسبة، وهو صنيع معروف في تاريخ تدوين العلوم والمعارف الإسلامية وغيرها منذ عصر التكثر، عصر النقل والرواية والاستطراد، والخروج من فن إلى فن، ومن مسألة إلى مسائل أخرى، فهو أشبه ما يكون بما عُرف في العصور المحدثة بـ(دوائر المعارف) التي يحاول واضعوها أن يجمعوا كل شيء عن كل شيء، بيد أن هذه الدوائر لها نظامها الوضعي الخاص الذي يجعلها قواميس موسعة للمعرفة في نظام يجعل كل مسألة تحت أصولها الأبجدية أو الموضوعية، وليس فيها هذا (الدمج المزجي) الذي يدخل الشيء في الشيء وهو أبعد ما يكون منه.

ونهج ابن أبي جمرة في بيان إمكان تحقق ما نُسب إلى علي رضي الله عنه - لو صحت القصة - أقرب إلى أن يكون نهجًا علميًا تفسر به فاتحة الكتاب من النهج الذي سلكه الأستاذ محمد عبده فيما صوره عنه تلميذه السيد رشيد رضا؛ لأن نهج ابن أبي جمرة لم يدّع أن (سورة الفاتحة) في إيجازها المعجز تتضمن جميع حقائق ومعاني القرآن الحكيم كالذي زعمه الأستاذ محمد عبده، وأقام على

دعائمه كلامه في بيان تضمن الفاتحة لذلك، وهذه الدعوى (الدمجية) هي التي يمكن أن تكون محتملة لأن يقال عنها: إنها تسلب القرآن الحكيم خاصيته، وهي البيان.

لأن خاصية البيان القرآني تقتضي أن تكون آياته وسوره مستقلة الأداء للحقائق الكونية التي تضمنها القرآن، وأن تكون مستقلة الأداء في تأسيس الإيمان بالله تعالى وصفاته العليا، وأسمائه الحسنى وموجبات الإيمان بها، وأن تكون مستقلة الأداء في التعبد الذي يقرب إلى الله تعالى بما شرعه في كتابه، وأن تكون مستقلة الأداء في إقامة دعائم النظم الاجتماعية التي تقوم على العدل والمرحمة بين أفراد المجتمع البشري وجماعاته، وأممه وشعوبه.

فلا تدمج الحقائق الكونية والمعاني الإيمانية، والشرائع التنظيمية إدماجًا يجعلها محصورة - ولو إجمالاً في آيات سورة موجزة التعبير والأداء في موضوعها؛ لأن ذلك يفتح الطريق أمام الذين لم يشربوا روح الأسلوب البياني الذي اختص به القرآن، ليقولوا في إعجازه البياني ومعانيه وحقائقه وهدايته ما لا يتفق مع روعة البيان الإعجازي، وما لا يتفق مع عموم تشريعاته ونظمه وأساليب براهينه ودلائله الكونية، وأهدافه الإصلاحية، وخلود دعوته.

وسورة الفاتحة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

يمكن التعبير عن حقائقها ومعانيها بعبارات لا تؤدي إلى بعض حقائق ومعاني القرآن في دائرة ما اشتملت عليه، لا ما اشتمل عليه القرآن مهما أسهب في تفسيرها المفسرون، ومهما ولَّدوا فيها من المعاني؛ لأن القرآن العظيم كتاب فصلت آياته تبيانًا لحقائق الإيمان والهداية، فلا يمكن تفسيره تفسيرًا يكشف عن حقائقه كلها، ويكشف عن جميع معانيه في زمن معين، وجيل معين؛ لأن القرآن هو المعجزة العلمية العظمى الخالدة خلود رسالة محمد ﷺ.

فحقائق القرآن ومعانيه التي تحمل عموم هدايته خبيئة بيانه وأسلوبه وكلماته، يكشف عنها العالَم في ظل (تطور) العقل الإنساني وتفكيره شيئًا فشيئًا على مدى قيام الحياة في هذا العالم المتوثب للتقدم في آفاق المعرفة المتجددة، كما قال الله جل شأنه:

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ (الأنبياء: ٣٧)

وكمال قال عز وجل:

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ﴾ (النمل: ٩٣)

وكما قال جل وعلا :

﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ ﴾ (فصلت : ٥٣)

والمتأمل في أسلوب هذه الآيات، التي نبعت من محيط الحقائق الكونية، واتخذها القرآن معبرًا إلى بث هدايته، ومعرفة الله تعالى بوحدانيته وكمالاته الإلهية، وجاءت في أسلوب يكاد يكون موحد التعبير - يجد أنها تضمنت وعدًا من الله تعالى مقربًا بإعانة العقل الإنساني حتى يتمكن من معرفة أسرار الكون التي أودع الدلالة عليها في آياته تعبيرًا تارة، وإشارة تارة أخرى، ورمزًا في كثير من مواقعها مما يكشف عنه العلم على مدى تتابع الأجيال زمنًا بعد زمن، لا ينقطع مدده، ولا تنتهي آثاره، حتى يتبين للناس أن هذا القرآن المبين بحقائقه ومعانيه وهدايته إنما أُنزل على قلب محمد ﷺ النبي الأمي رسول الله وخاتم النبيين لهدايتهم إلى معرفة الله بمعرفة آياته، وبراهين حكمته، وستعرف أفئدتهم وعقولهم هذه الآيات عند كشفها كلما توافرت للعقل أسباب كشفها ووسائل معرفتها، فلا يستطيعون يومئذ إنكارها وجحدها، ولكنهم يستعجلون بما جبلوا عليه من غريزة الحرص على معرفة ما غاب عن حسهم وشعورهم، ولما تصل إليه عقولهم، فكل جيل من الناس

في كل زمان ومكان له حظه من معرفة حقائق القرآن ومعانيه وهدايته، ودلائله وأسراره.

يقول الإمام فخر الدين الرازي: إن العجائب التي أودعها الله تعالى في آياته مما لا نهاية له، فهو تعالى يطلع خلقه على تلك العجائب زمانًا، فزمانًا، ومثاله: كل أحد رأى بعينه بِنية الإنسان وشاهدها إلا أن العجائب التي أبدعها الله في تركيب هذا البدن كثيرة وأكثر الناس لا يعرفونها، والذي وقف على شيء منها فكلما أمعن النظر ازداد وقوفًا على تلك العجائب والغرائب.

وقد أبان النبي ﷺ أروع إبانة عن خلود معجزته العظمى، وسر ذلك الخلود فيما أخرجه البخاري في صحيحه من قوله ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أوتي ما على مثله آمن البشر، وكان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة».

فهذا الحديث الثابت إعجاز في الإبانة عن معجزة القرآن وخلودها، وسر ذلك الخلود؛ لأنه جعل الوحي بالقرآن، وهو أمر علمي عقلي محض، لا أثر فيه للمادية التي تُكره العقول على الإيمان بالمعجزة المادية ساعة التحدي بها، ثم تنقضي وتنتهي، كما في سائر معجزات الأنبياء والرسل السابقين، وإذا تقضت المعجزة المادية تَقَضَّى معها أثرها؛ لأنها موقوتة محدودة.

أمـا معجزة القـرآن فهي نفس مـا أوحى الله بـه إلى نبيه محمـد ﷺ، وهـي نفـس رسـالته، وهي نفـس هداية تلك الرسـالة، فالتحدي بها قائم لا يتقضـى ولا ينتهي، وأثرها فـي إقناع العقول وإنـارة القلوب، وإشـراق الأرواح قائم لا ينقطع، فلها في كل لحظة من كل يوم مهتدون بها، مقبلون علـى الإيمان بها واعتناقها، ومن ثم جاءت الرجاوة مترتبة على أسبابها ودواعيها في قول النبي ﷺ: «فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة».

تحقيق القول في دعوى أولية نزول الفاتحة:

والقول بأن (سـورة الفاتحة) هي أول ما نزل من القرآن إطلاقًا قول مرجوح، بل مردود، قال عنه الإمام النووي: هو قول باطل، وبطلانه أظهر من أن يُذكر.

وقـال البيهقي عن حديثه الذي اسـتند إليه القائلون به: هـو منقطـع. والمنقطع من أقسـام الضعيف، فـلا تقوم به حجة.

وقـد ذهب إلى هذا القول المرجوح من المفسـرين جار الله الزمخشـري، وجازف فنسـبه إلى أكثر المفسرين، قال فـي الكشـاف: ذهب ابن عباس ومجاهد إلى أن أول سـورة نزلـت (اقرأ)، وأكثر المفسـرين إلى أن أول سـورة نزلت فاتحة الكتاب.

وقد رد الحافظ ابن حجر في الفتح على الزمخشري ادعاءه أولية نزول الفاتحة، فقال: والذي ذهب إليه أكثر الأئمة هو الأول - أي القول بأولية نزول (اقرأ) كما هو قول ابن عباس ومجاهد - وأما الذي نسبه الزمخشري إلى الأكثر فلم يقل به إلا عدد أقل من القليل بالنسبة إلى من قال بالأول.

وحجة الزمخشري على ادعائه أولية نزول الفاتحة ما أخرجه البيهقي في الدلائل، والواحدي في (أسباب النزول) من طريق يونس بن بكير عن يونس بن عمرو عن أبيه، عن أبي ميسرة الهمداني، عمرو بن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: «إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء، فقد والله خشيت أن يكون هذا أمرًا» فقالت: معاذ الله، ما كان الله ليفعل بك، فوالله إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث. فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة حديثه له، وقالت: اذهب مع محمد إلى ورقة، فانطلقا فقصا عليه، فقال: «إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي، يا محمد، يا محمد، فأنطلق هاربًا في الأرض» فقال: لا تفعل، إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول، ثم ائتني فأخبرني، فلما خلا ناداه، يا محمد، قل:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

- حتى بلغ - ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

قال السيوطي في (الإتقان): هذا حديث مرسل، رجاله ثقات، وقال البيهقي: إن كان هذا الحديث محفوظًا من وجه غير هذا فيحتمل أن يكون خبرًا عن نزول الفاتحة بعد ما نزلت (اقرأ) و(المدثر).

وقال القسطلاني في (المواهب): وأما حديث البيهقي، أن أول ما نزل الفاتحة، كقول بعض المفسرين، فقال البيهقي: هذا حديث منقطع – أي فلا حجة فيه – لأن المنقطع من أقسام الضعيف، فإن كان محفوظًا من غير هذا الوجه فيحتمل أن يكون خبرًا عن نزولها بعد أن نزلت ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ فلا حجة فيه للأولية المطلقة.

وقفة باحثة مع الأستاذ الإمام محمد عبده:

ولعل الأستاذ الإمام محمد عبده نزع في قوله بأولية نزول الفاتحة إطلاقًا إلى هذا الحديث متقبلًا للزمخشري في دعواه هذه الأولية، والمسألة نقلية محضة، لا مدخل فيها للاجتهاد والرأي.

بيد أن الأستاذ الإمام أراد أن يدعم اختياره لهذا الرأي فنزع هذا المنزع الغريب في بيان حكمة القرآن وفقه الدين، فأسهب في بيان تضمن الفاتحة جميع حقائق ومعاني القرآن، وقصصه وأخباره وتشريعاته إسهابًا أدبيًا لا يخلو من تكلف وتعسف في استخراج حقائق القرآن ومعانيه من عبارات آيات سورة الفاتحة.

وقد كان من الخير للعلم وسواءِ البحثِ أن يتسامى الأستاذ الإمام بقلمه إلى مقامه العلمي ومركزه الفكري وهو رائد الطليعة المجددة في هذا القرن، لا سيما في بيان حكمة القرآن، وتفسير المعاني التشريعية والتنظيمية وإبراز سنن الله في الاجتماع البشري من خلال آيات القرآن المبين.

ويظهر أن تلميذه السيد العلامة الأستاذ رشيد رضا – وهو أنجب تلاميذه، وأقومهم على فهم القرآن الكريم فهمًا يعتمد على معرفة بالسنة النبوية، وكان بنصوصها أقوم من شيخه – لم يطمئن كل الاطمئنان إلى منزع شيخه الأدبي الغريب في بيان حكمة القرآن وفقه الدين اللذين نزع بهما في بيانه حكمة أولية نزول الفاتحة، فقال في تقديم كلام شيخه: إنه نزع في الاستدلال على مذهبه أن سورة الفاتحة أول ما نزل من القرآن إطلاقًا منزعًا غريبًا.

ثم قال الأستاذ رشيد رضا معقبًا على كلام شيخه: وأقول الآن: هذا ما قاله الأستاذ الإمام مبسوطًا موضحًا، ويمكن أن يُقال: إن نزول أول سورة العلق قبل الفاتحة لا ينافي هذه الحكم التي بيَّنها.

وهاهنا ملاحظة تسترعي النظر والتأمل، ذلك أن كلام الشيخ رشيد رضا –رحمه الله– ليس فيه إشارة من قريب أو بعيد إلى ما جاء في تفسير جزء (عم) للأستاذ الإمام من تصريحه بأن نزول سورة العلق كان أول خطاب إلهي وُجه إلى النبي ﷺ،

وهذا بيِّن لا يتخالجه شـك في أن أول ما نزل من القرآن إطلاقًا هو الآيات الخمس من أول سـورة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ وهو الرأي الذي مضى عليه جمهـور الصحابة والتابعين وأكثر الأئمة من علماء الأمة.

ثـم قال الأسـتاذ الإمام: وهذا لا ينافي أن أول سـورة نزلت كاملة بعد ذلك هي أم الكتاب كما بيَّنَّاه في تفسيرها.

ولا ندري كيف كان ذلك، والشـيخ رشيد رضا هو صاحب نقـل وتصويـر دروس الإمام في تفسـيره العـام على صفحات (المنار) نشـرًا في المجلة، وتفسيرًا مدونًا في أسفار وأجزاء تفسير (المنار) وهو صاحب الإشراف الكامل علمًا وعملًا في إخراج تفسير جزء (عم) مطبوعًا متداولًا في أيدي القارئين.

والـذي ذكره الإمام في تفسـير جزء (عـم) كلام مُتقبل لا يـرده نقـل صريح، ولا يأباه عقل عليم؛ لا سـيما إذا أُدرج فيه ما يفيد أن الآيات الخمس من أول سورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ كانت أسـبق نزولًا من سورة الفاتحة؛ لأنها أول آيات نزلت بعد فترة الوحي، التي بدأت عقب نزول ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾

وانتهت بنزول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ وهذه الفترة لم تتجاوز أيامًا معدودات كما حققناه بحثًا وترجيحًا.

ولـو أن الأسـتاذ الإمام محمد عبده جعل مـا ذكره في بيانه الأدبي – الذي نزع فيه هذا المنزع الغريب في بيان حكمة أولية

نزول سورة الفاتحة إطلاقًا - بيانًا لحكمة الترتيب الإلهي بين سور القرآن في العرضتين الأخيرتين في رمضان من عام انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى - حتى انتهى هذا الترتيب التوقيفي بين سور القرآن إلى المصحف الإمام الذي اتفقت عليه كلمة الأمة خلفًا عن سلف بجميع طوائفها، وهو لا يزال بين يديها متلوًّا مدروسًا على ما رتبه رسول الله ﷺ في آخر عرضة على أمين الوحي جبريل عليه السلام، والله معهما يسمع ويرى - لكان ذلك من أمثل ما يقال في حكمة القرآن وفقه الدين، ولكان فيه ما يؤيد رأي جمهور العلماء من أن ترتيب السور على ما في المصحف الإمام توقيفي كترتيب الآيات.

وكان يكفي الأستاذ الإمام محمد عبده كلماته الحكيمة التي قالها في بيان حكمة افتتاح نزول القرآن بأول سورة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ وأنها أول خطاب إلهي وُجه للنبي ﷺ، لتبقى في ميزانها الرجيح - إلى جانب ما قاله العلامة الحافظ ابن حجر في حكمة افتتاح نزول القرآن بها - صورة مشرقة في الإطار الفكري الذي وضعت فيه رسالة محمد خاتم النبيين ﷺ.

ومن غرائب الأقوال في أولية نزول (سورة الفاتحة) ما نسبه بعض مَن لم يحسن التأمل في سوق الحقائق لمناسباتها، أخذًا من كلام أبي الحسن الواحدي في كتابه (أسباب نزول القرآن)؛ إذ ذكر الواحدي حديث أبي ميسرة، وهو بصدد

بيان مكية فاتحة الكتاب ـ وقد عرفنا أن هذا الحديث هو مستمسك القائلين بأولية نزول الفاتحة، ولعل هذا هو مصدر عدم التأمل عند مَن نسب القول بأولية نزول الفاتحة إلى علي رضي الله عنه ـ ثم قال الواحدي: وهذا ـ أي القول بمكية فاتحة الكتاب ـ قول علي بن أبي طالب، فذهب الوهم بمن لم يحسن التأمل إلى أولية نزول الفاتحة، فنسبه لعلي رضي الله عنه، وظاهر عند التأمل أنه لا علاقة لهذا بأولية النزول.

والواحدي ذكر حديث أبي ميسرة بصدد بيان أن فاتحة الكتاب مكية النزول، ردّا على مَن زعم أنها مدنية النزول، وهو قول منسوب إلى مجاهد، وقد عده العلماء هفوة عالم، لا يتابَع عليها.

ثم قال الواحدي: ولا يسعنا القول أن رسول الله ﷺ قام بمكة بضع عشرة سنة يصلي بلا فاتحة الكتاب، هذا مما لا تقبله العقول.

والخلاف في أولية النزول بين ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ وسورة الفاتحة أيسر موردًا ومصدرًا من الخلاف في أولية النزول بين (اقرأ باسم ربك) و(يا أيها المدثر) لأن حديثي (اقرأ) و(المدثر) مرويان في الصحيح، رواهما الشيخان: البخاري ومسلم، وحديث أولية نزول (اقرأ) من رواية عائشة رضي الله عنها، وهو قوله كما أخرجه الحاكم في مستدركه والبيهقي في دلائله، وأنها كانت تقول: أول سورة نزلت من القرآن

(اقرأ باسم ربك) وهو قول أبي موسى الأشعري، كما أخرجه الطبراني في كبيره عن أبي رجاء العطاردي قال: كان أبو موسى يقرئنا، فيجلسنا حلقًا، عليه ثوبان أبيضان، فإذا تلا هذه السورة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ قال: هذه أول سورة أنزلت على محمد ﷺ.

وشُهر القول به عن ابن عباس وابن الزبير رضي الله عنهما، وقال به من التابعين عبيد بن عمير والزهري، ورواية عن مجاهد، وعليه جمهور المحدثين، والفقهاء.

تحقيق القول في زعم أولية نزول (يا أيها المدثر):

أما حديث أولية نزول (يا أيها المدثر) فمن رواية جابر بن عبد الله رضي الله عنهما وهو قوله، وقد أخرجه الشيخان، البخاري ومسلم، والترمذي، والنسائي، والإمام أحمد.

والبخاري -رحمه الله- أورد حديث جابر في صحيحه بطرق مختلفة الإسناد، وروايات متعددة، فقد رواه أولاً -عن يحيى بن موسى البلخي، قال: حدثنا وكيع، عن علي بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير قال: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن؟ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ قلت: يقولون: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن ذلك، وقلت له مثل الذي قلت، فقال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال: «جاورت

بحراء فلما قضيت جواري هبطت فنوديت، فنظرت عن يميني، فلم أر شيئًا، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئا، ونظرت أمامي فلم أر شيئًا، ونظرت خلفي فلم أر شيئًا، فرفعت رأسي، فرأيت شيئًا، فأتيت خديجة، فقلت: دثروني، وصبوا علي ماء باردًا، فدثروني، وصبوا علي ماء باردًا، فنزلت:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾

ورواه ثانيًا ـ عن محمد بن بشار، قال حدثنا عبد الرحمن بن مهدي وغيره ـ أي أبو داود الطيالسي ـ قالا ـ حدثنا حرب بن شداد، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «جاورت بحراء» ثم أحال البخاري هذه الرواية على حديث لم يروه ـ كما قال الحافظ ابن حجر ـ وإنما رواه مسلم.

ورواه ثالثًا ـ فقال: باب قوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾

حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا عبد الصمد، حدثنا حرب، حدثنا يحيى، قال سألت أبا سلمة: أيّ القرآن أنزل أول؟ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾. فقلت: أُنبئت أنه ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾. فقال أبو سلمة، سألت جابر بن عبد الله: أي القرآن أنزل أول؟ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾. فقلت: نبئت أنه (اقرأ باسم ربك الذي خلق). فقال: لا أخبرك إلا بما قال رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «جاورت في حراء، فلما

قضيت جواري هبطت فاستبطنت الوادي، فنوديت، فنظرت أمامي وخلفي، وعن يميني، وعن شمالي، فإذا هو جالس على عرش بين السماء والأرض، فأتيت خديجة، فقلت: دثروني، وصبوا علي ماء باردًا» وأنزل علي

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾

ورواه رابعًا ـ فقال: باب ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث عن عقيل، عن ابن شهاب، وحدثني عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن الزهري، فأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعت النبي ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: «فبينا أنا أمشي إذ سمعت صوتًا من السماء، فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فجَئثت منه رعبًا[٦]، فقلت: زملوني، زملوني، فدثروني»، فأنزل الله تعالى

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ إلى قوله ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾.

ورواه خامسًا: فقال: باب ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا الليث عن عقيل، قال ابن شهاب: سمعت أبا سلمة قال: أخبرني جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ

(٦) أي فزعت حتى سقطتُ على الأرض. (المجلة)

يحدث عن فترة الوحي : «فبينا أنا أمشي إذ سمعت صوتًا من السماء ، فرفعت بصري قِبَل السماء ، فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض ، فَجئثت منه حتى هويت إلى الأرض ، فجئت أهلي ، فقلت : زملوني ، زملوني ، فزمَّلوني ، فأنزل الله تعالى :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾

إلى قوله : ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ ـ قال أبو سلمة ، والرجز : الأوثان ـ ثم حمي الوحي وتتابع» .

غموض الحكمة في سوق الإمام البخاري روايات هذه القصة:

هذا الصنيع الذي نهجه الإمام البخاري في سوقه روايات القصة عجيب ، ولعله من أسرار جامعه التي لم تكشف عنها الحجب ، فالقصة واحدة ، تدور رواياتها كلها حول موضوع واحد ، والسائل في الروايات الثلاث الأول واحد ، وهو يحيى بن أبي كثير ، والمسئول فيها واحد ، هو أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ، والمجيب فيها واحد ، هو الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما .

وفي الرواية الرابعة والخامسة لم يذكر يحيى بن أبي كثير ، وإنما ذكر فيهما ابن شهاب الزهري مخبرًا من أبي سلمة بما حدثه به جابر عن رسول الله ﷺ .

فالروايـات الخمس كلهـا تدور حول مسـألة واحدة، هي (مـا أول مـا نزل من القـرآن؟) وجـاءت عبـارات الروايات متقاربة تقاربًا شديدًا، تكاد تكون موحدة، فما حكمة توزيع الروايـات الموحـدة المضمـون وتفريقها علـى أبواب، كل باب تعنونه آية من الآيـات الخمس، فيما عدا الرواية الأولى التي أخذت مـن الآيتين الأوليين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ عنوانها دون تبويب؟

فهـل صنع الإمام البخاري ذلك لمجـرد جمع طرق الرواية وأسـانيدها المختلفة، فيما قبل يحيى والزهري تأكيدًا لصحة الحديث؟

فإذا صح هذا بقي السؤال عن حكمة جعل كل آية من الآيات الثلاث الأخيرة عنوانًا لباب لم يذكر فيه سوى الحديث نفسه بلفظه ومضمونه ومعناه؟

ومما هـو أدخل في الغرابة وإثارة العجب سـكوت الحافظ الإمـام العليم ابـن حجر - وهو قيـم الجامـع الصحيح وحلّال مشـكلاته، وفـكّاك طلسـماته، وكشـاف خفايـاه، ومظهـر أسراره - عن بيان حكمة هذا الصنيع من الإمام البخاري.

والسـؤال فـي الروايـات الثلاث الأولـى كان عـن أول ما نـزل من القرآن، والجواب فيها كان من أبي سـلمة بأن أول ما نـزل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ وجاءت معارضـة يحيى بن أبي كثير لأبي

سلمة، بذكره له ما هو متداول عند أهل العلم بينهم بأن أول ما نزل من القرآن ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ وبيان أبي سلمة في رده على هذه المعارضة بأنه سأل جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن ذلك، وأنه أخبر جابرًا بمثل ما قاله يحيى له في معارضته مما اشتهر وتُدوول بين أهل العلم من أن أول ما نزل من القرآن ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ فقال له جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ، وساق حديث تجلي جبريل للنبي ﷺ، وهو يناديه، فرفع النبي ﷺ رأسه إلى السماء لما سمع النداء، فرأى شيئًا، ولم يعين في هذه الرواية ما هو هذا الشيء الذي رآه النبي ﷺ، ونزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾.

في الرواية الثالثة أن النبي ﷺ لما سمع النداء نظر عن يمينه وشماله وأمامه وخلفه ثم قال: «فإذا هو جالس على عرش بين السماء والأرض» وهذا القول من النبي ﷺ يفيد أن النبي ﷺ قد رأى مَن يعرفه، ومن سبق له لُقياه ورؤيته، وليس ذلك إلا جبريل عليه السلام أمين الوحي، فهو الذي سبق له أن لقيه في غار حراء، وأقرأه الآيات الخمس من أول سورة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾.

والروايات الثلاث الأولى تتفق في جوهر الموضوع، ولا تختلف إلا في أسلوب الأداء إيجازًا أو بسطًا مناسبًا لا يخلو من فائدة.

أما الروايتان الرابعة والخامسة ففيهما أن الزهري أخبره أبو سلمة، وسمع منه ما حدثه به جابر رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي، وساق البخاري في هاتين الروايتين الحديث، وقد جاء فيه (فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس أو قاعد على كرسي بين السماء والأرض) وأن النبي ﷺ جَئِث من هول ما رأى، وداخله شيء من الفزع لعظم المنظر وغرابته على الطبيعة البشرية، وقد عبر النبي ﷺ عن فزعه بقوله: «ففرقت منه» ثم ذهب إلى أهله، وقال لهم: «زملوني، زملوني» فزملوه، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾.

وبمقتضى وحدة القصة في موضوعها يجب رد بعض الروايات إلى بعض، على معنى أن تجعل كلها رواية واحدة، تتضمن خلاصة القصة باعتبارها وحدة في موضوعها، لينتهي ذلك إلى أن كل ما نقل عن جابر رضي الله عنه إنما كان حديثًا سمعه من النبي ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي، وعودته إليه بعد فترته، وأنه كان أول ما نزل في عودة الوحي بعد فترته

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾

إلى قوله: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾

وجابر رضي الله عنه لم يتعرض مطلقًا في حديثه لنزول ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾

ولكنه لما سئل عن أول ما نزل من القرآن أجاب بما عنده من العلم، ولما أُشعِر بما يقوله أهل العلم من أن أول ما نزل من القرآن ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾

بيَّن أنه سمع رسول الله ﷺ وهو يحدث عن مناسبة خاصة هي فترة الوحي، وكان في هذا الحديث عن الفترة، فأنزل الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾

وهي التي افتتح بها الوحي بعد فترته وعودته إلى النبي ﷺ.

ولم يتعرض جابر رضي الله عنه في حديثه إلى نفي أو إثبات أن قرآنًا نزل عل النبي ﷺ قبل فترة الوحي، مع بيانه في نص الحديث أن النبي ﷺ رأى جبريل وعرفه، وأخبر عنه بالكناية في قوله ﷺ: «فإذا هو» وهذا بيِّن جدًا في أنه ﷺ يعني بهذه الكناية شخصًا معروفًا له، كان قد سبق له أن لقيه ورآه وعرفه معرفة يقين وأنه اجتمع به، ويوضح ذلك ما جاء في الرواية الثانية من الروايتين الأخيرتين، وهي رواية الزهري، من التصريح بأخص أوصاف شخصية المكنى عنه، إذ جاء فيها قول النبي ﷺ: «فإذا الملك الذي جاءني بحراء».

التوفيـق بيـن روايـات حديـث جابـر بـرد المُبهـم إلى المُفسر:

وإذا استعصى على الباحثين تأويل حديث جابر رضي الله عنه في رواياته الثلاث الأولى عند البخاري رحمه الله تعالى، بما يجعله متفقًا مع رأي جمهور الأئمة من السلف في قولهم بأولية نزول ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ أولية مطلقة، لما في تلك الروايات الثلاث من مراجعة يحيى بن أبي كثير لأبي سلمة - أولاً - وإخباره بما يقوله أهل العلم من أولية نزول (اقرأ) بعد إجابة أبي سلمة له عن سؤاله: أي القرآن نزل أولاً، فقال له أبو سلمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾.

ومن مراجعة أبي سلمة لجابر - ثانيًا - وإخباره بما يقوله أهل العلم من أولية نزول (اقرأ) وقول جابر رضي الله عنه في الرد على أبي سلمة: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ، وذكر له الحديث الذي سمعه من رسول الله ﷺ، وفيه أنه ﷺ لما قضى جواره واستبطن الوادي رأى الملك الذي كان قد رآه في غار حراء على عرش بين السماء والأرض، فرعب لما رأى من منظر هائل غير مألوف ولا متوقع، حتى هوى على الأرض، وذهب إلى أهله، فقال لهم: (دثروني) فدثروه، وأنزل الله عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾

إذا استعصى على الباحثين التوفيق لهذه المعارضات، فإنه

لا يستعصي عليهم أن يردوا ما في هذه الروايات الثلاث من إبهام وإجمال إلى ما جاء من التفسير والتفصيل - في روايتي الزهري - اللتين تحددان شخصية المرئي للنبي ﷺ في منظره وهو جالس عل كرسي بين السماء والأرض، وتحددان المكان الذي سبق للنبي ﷺ أن لقي فيه هذا الشخص المرئي له في منظره الهائل، وهو مستبطن الوادي، وهذا المكان هو غار حراء، ويشير إلى ما جرى في هذا اللقاء من أحداث، كان أجلها وأعظمها وأظهرها هو افتتاح الرسالة بنزول أول ما نزل من القرآن الكريم، وهو الخمس آيات من أول سورة (اقرأ).

وعندئذ يظهر جليًا أن جابرًا رضي الله عنه إذ تحدث إلى أبي سلمة في جواب سؤاله: عن أي القرآن نزل أولاً؟ وإخباره بقول أهل العلم أنهم يقولون: أول ما نزل (اقرأ باسم ربك) بما كان عنده من علم سمعه من رسول الله ﷺ، وهو يتحدث عن فترة الوحي، وعن أول ما نزل من القرآن بعد انتهائها وعودة الوحي إليه ﷺ، وأن جابرًا رضي الله عنه لم يتعرض مطلقًا في حديثه إلى أبي سلمة لقصة غار حراء قبل فترة الوحي، وما جرى فيها من أحداث كانت معروفة لأهل العلم، من جمهور الصحابة، وما نزل فيها من قرآن، وهو الآيات الخمس من أول سورة (اقرأ) باتفاق.

ولعل جابرًا لم يكن قد وصل إلى علمه شيء من قصة غار حراء، وما نظن أحدًا يزعم أن كل صحابي يجب عليه أن يحيط علمًا بجميع جزئيات وقائع الوحي.

أو لعـل جابرًا رضي الله عنه كان على علم بقصة الوحي في غـار حـراء، ولكنه لـم يجعلها بمعـرض حديثه لأبي سلمة في جواب سؤاله؛ لأن هذا الحديث كان في مناسبة خاصـة، هي عـودة الوحي بعد فترته، ولا شـك أن أول ما نزل حينئذ هو

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾

كما يدل عليـه صراحة رواية الزهري بسـنديها، التي جاء فيهـا عـن جابر، قال: سـمعت رسـول الله ﷺ (وهو يحدث عن فترة الوحي) فهذا نص قاطع في تعيين مناسـبة الحديث، ويؤكد ذلك ما جاء في هذه الرواية نفسها من قول النبي ﷺ: «فـإذا الملـك الـذي جاءني بحـراء» فالحديـث كان عن فترة الوحي، وفيه النص الصريح على أن الملك الذي نزل بعد فترة الوحي بآيات (يا أيها المدثر) هو الملك نفسـه الذي جاء إلى النبي ﷺ في متعبده غار حراء، وأقرأه آيات أول سورة (اقرأ).

وعلـى هذا يكون إخبار جابر لأبي سـلمة بـأول ما نزل من القـرآن، إنما يعني أول مـا نزل أول عودة الوحـي بعد فترته، وكـون آيات (اقرأ) نزلت قبل ذلك لم يكن بمعرض الحديث عنـه، والمعارضـات التي أوردها يحيى بن أبـي كثير على أبي سلمة، وأوردها أبو سلمة على جابر، بقول أهل العلم في أولية نزولها، ورد جابر لهذه المعارضات بما سـمعه من رسـول الله ﷺ منظـور فيه إلى مناسـبة الحديث وجوِّه الـذي جرى فيه،

وهو التحدث عن فترة الوحي لا عن شيء قبلها.

وهذا الوجه في التوفيق بين الروايات أولى وأرجح من سائر وجوه التوفيق التي ذكرها في أجوبتهم من تعرضوا للنظر في هذا الموضع.

ويؤيد ما ذهبنا إليه قول العلامة الحافظ ابن حجر في الفتح: ودل قوله عن فترة الوحي، وقوله: الملك الذي جاءني بحراء على تأخر نزول سورة المدثر عن اقرأ، ولمَّا خلت رواية يحيى بن أبي كثير عن هاتين الجملتين أشكل الأمر، فجزم مَن جزم بأن ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ أول ما نزل ورواية الزهري هذه الصحيحة ترفع الإشكال.

ضعف الأجوبة عن حديث جابر وكلام ابن حجر ومناقشته:

ثم قال ابن حجر في تفسير سورة (اقرأ) من الفتح: ورواية الزهري عن أبي سلمة عن جابر تدل على أن المراد بالأولية في قوله: أول ما نزل سورة (المدثر) أولية مخصوصة بما بعد فترة الوحي، أو مخصوصة بالأمر بالإنذار، لا أن المراد أولية مطلقة.

وهذا الكلام من الإمام ابن حجر يهدر المراجعة التي كانت - أولاً - بين يحيى بن أبي كثير، وأبي سلمة بن عبد الرحمن، والتي كانت - ثانيًا - بين أبي سلمة وجابر؛ لأن هذه المراجعة تقطع بأن القضية كانت قضية أول ما نزل من القرآن إطلاقًا،

إذ ليس في رواية من روايات المراجعات الثلاث -وهي التي صدر بها البخاري- ما يُشعر قط بقيد يخصص الأولية بما بعد فترة الوحي، ولا بما هو أمر بالإنذار، بل إن نص الروايات يرد هذا التقييد؛ لأن كلا من المتراجعين، يحيى بن أبي كثير وأبي سلمة من جانب، وأبي سلمة وجابر من جانب آخر، حينما أخبر من صاحبه بأن أول ما نزل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ راجعه معارضًا لقوله بما نبئ به من أن أهل العلم يقولون: إن أول ما نزل ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ وهذا معناه التعارض في نظرهم.

ولو كان المراد بأولية نزول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ في حديث جابر أولية مخصوصة بأحد القيدين المذكورين في كلام ابن حجر لم يقع تعارض، والمتراجعان أولاً، وثانيًا، من أجل وأعلم أئمة العلم والدين في سلف الأمة خير قرونها، لا يخفى عليهم مكان التعارض من مكان التوافق.

ولا يمكن دفع هذا التعارض إلا بحمل ما في روايات المراجعة الثلاث من إبهام وإجمال على ما جاء في روايتي الزهري من تفسير وتوضيح وتفصيل، كما دل عليه قول ابن حجر: ودل قوله: عن فترة الوحي، وقوله: (الملك الذي جاءني بحراء) على تأخر نزول سورة (المدثر) عن (اقرأ)، ولما خلت رواية يحيى بن أبي كثير -وهي روايات المراجعة الثلاث- عن هاتين الجملتين أشكل الأمر، فجزم من جزم بأن

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ أول مـا نـزل، ورواية الزهري هـذه الصحيحة ترفع الإشكال.

فلـو لم تخل روايـات المراجعـة الثلاث من ذكـر القيدين المذكوريـن في روايتـي الزهري لم يقع تعـارض قط؛ لأن هذا التقييـد يبين تخصيص أولية نزول (يا أيها المدثر) بأنها بعد فترة الوحي.

أمـا التقييد بأن أولية نـزول ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ مخصوصة بما هو الأمر بالإنذار، فلا يفيد في دفع التعارض؛ لأن هذا التقييد لا يُستفاد من روايتي الزهـري، ولا تدلان على أنه مقصود في تقييـد الأولية به من قريب أو بعيـد، فيكون مجرد دعوى، لا تجد لها سندًا يدعمها.

ضعف كلام الحافظ السيوطي فـي التوفيق والإجابة عن تعارض الروايات:

ومن الإجابات الضعيفة للتوفيق ما قاله الحافظ جلال الدين السـيوطي في (الإتقان) من أن السـؤال كان عن نزول سـورة كاملة، فبين سـيدنا جابر أن سـورة (المدثر) نزلت بكمالها قبل نزول تمام سورة (اقرأ). وهذا كلام ظاهر الضعف.

وزعم السـيوطي أن ذلك يتأيد بما في الصحيحين، وسـاق حديث الزهري الذي جاء فيه «فإذا الملك الذي جاءني بحراء» وقـال: الملك الذي جاءه بحراء، يدل على أن هذه القصة ـ أي

قصة التحدث عن فترة الوحي التي نزل فيها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ متأخرة عن قصة حراء التي نزل فيها (اقرأ).

والقول بأن قصة نزول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ وقصة التحدث عن فترة الوحي متأخرة عن قصة حراء صحيح مسلم، ولكن الزعم بأن قصة حراء هي التي نزل فيها (اقرأ) وهو صحيح مسلم أيضًا، لكن لا يلزم به مَن يقول بأولية نزول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾.

وليس في حديث جابر بطرقه المختلفة، زهرية أو غير زهرية، ذكر لكون (اقرأ) نزلت في قصة حراء، وكل ما في حديث الزهري أن الشخص الذي رآه النبي ﷺ جالسًا على كرسي بين السماء والأرض، وهو مستبطن الوادي، هو الملك الذي جاءه بحراء، وليس في الحديث تعرض قط لما أوحي إليه ﷺ في هذه القصة من قرآن أو غيره.

وثبوت نزول (اقرأ) في حديث عائشة عند البخاري وغيره لا يلزم من يقول بأولية نزول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ لأن حديث عائشة لم يُذكر في صدد قصة أولية ما نزل من القرآن إطلاقًا، فما في الصحيحين ليس فيه تأييد لهذا المدعى الذي ذهب إليه الحافظ السيوطي.

والمتأمل في هذه الأجوبة والتوفيقات يظهر له ضعفها وعدم تماسكها، وحديث جابر صحيح ثابت بجميع طرقه ورواياته، وهو متعارض مع حديث عائشة رضي الله عنها في

قصة حراء وهو حديث متفق على صحته وثبوته، متقدم في قصته وموضوعه تاريخيًا على حديث جابر، وإن لم يقصد بسياقه تحقيق أولية ما نزل من القرآن.

وحديث عائشة رضي الله عنها صريح قاطع بنزول أوائل سورة (اقرأ) في أول وحي يقظي، بدأت به رسالة محمد ﷺ، في أول لقاء بينه وبين أمين الوحي جبريل عليه السلام، إذ جاءه الحق، ففجأه به، وأقرأه أول ما أوحي إليه من القرآن في أول خطاب وُجه إليه ﷺ

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾

ثم فتر الوحي فترة غمر الشوقُ فيها إلى تنزله وتتابعه مشاعرَ النبي ﷺ ومداركه وإحساساته، وعظم تطلعه إليه، ولم ينقطع ﷺ عن جواره في متعبده بغار حراء، وبينما هو عائد إلى أهله بعد أن أكمل مدة جواره إذا جبريل الأمين يتجلى له في صورة روحانية عالية عظيمة، لم يعهدها رسول الله ﷺ، فرعب من هول ما رأى وشاهد، فلما بلغ إلى أهله قال: «دثروني، دثروني» فدثروه حتى ذهب عنه الروع، فأنزل الله تعالى عليه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾

فكانت هـذه الآيات أول ما نزل بعد فترة الوحي، ابتدأ بها عوده إليه، وحمي وتتابع، وقرت بذلك عين رسول الله ﷺ.

فجابر رضي الله عنه حينما سُئل عن أول ما نزل من القرآن فهم من السـؤال أنه يقصد إلى أولية مطلقة، فأجاب بما عنده من علم سمعه من رسول الله ﷺ، وهو يتحدث عن فترة الوحي، وما انتهت به من عوده وتتابعه، ونزول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾.

ولـم يثبت - فيما نعلم - أن سـيدنا جابرًا رضي الله عنه كان على علم بسـبق نـزول (اقرأ) نـزولَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾، ولكـن الاحتمـال بالعلـم قائـم ليس هنـاك ما ينفيـه، وقد فرضناه وأجبنا عنه.

ولعل النبي ﷺ حين سمعه جابر يتحدث عن فترة الوحي، ويذكـر الملك الذي جاءه بحـراء كان يتحدث عن قصة وحي الرسالة منذ بدأ وحيها بلقاء جبريل في غار حراء وما نزل عليه في هذا اللقاء من آيات سـورة (اقرأ)، ثم عن فترة الوحي، وما كان فيهـا حتى تجلى له جبريل في صورته الروحانية الخاصة، ونزول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ فسمع جابر رضي الله عنه من النبي ﷺ آخـر الحديـث، وهو ما يختـص بفترة الوحـي ونزول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ ولم يسـمع أوله الـذي يختص بقصة الغـار، وما نزل فيهـا من آيات أوائل سـورة (اقرأ)، فتحدث جابر إلى سـائله عـن أول ما نزل من القرآن بما سـمع من النبـي ﷺ، وظن أن

(يا أيها المدثر) أول ما نزل من القرآن إطلاقًا ، وإلى نحو هذا يشير كلام الواحدي في كتابه (أسباب نزول القرآن) إذ يقول بعد أن روى حديث جابر من إخراجٍ مسلم عن طريق الأوزاعي : وهذا ليس بمخالف لما ذكرناه أولاً ؛ وذلك أن جابرًا سمع من النبي ﷺ هذه القصة الأخيرة - أي قصة فترة الوحي ونزول (يا أيها المدثر) - ولم يسمع أولها - أي قصة الغار ، ونزول (اقرأ) - فتوهم جابر أن سورة المدثر أول ما نزل ، وليس كذلك ، ولكنها أول ما نزل بعد (اقرأ) .

مجازفة النووي في الحكم على حديث جابر بالبطلان:

فحديث جابر في قوله بأولية نزول : (يا أيها المدثر) صحيح ثابت ، فالحكم عليه بالضعف ، بله البطلان -كما زعم الإمام النووي- مجازفة ، وتعجل في الحكم .

ومقام الإمام النووي في فضله ، وعلمه بالسنة النبوية ، ودرجات الحديث صحة وضعفًا ، وورعه وفقهه في الدين كان يقتضيه الريث والتعمق في تطلب مخارج لهذا الحديث ، وعدم بت الحكم على حديث مروي بأسانيد ثابتة صحيحة من أعلى درجات الصحة والثبوت ، وحسبه أنه من مرويات الشيخين : البخاري ومسلم ، فمن أين يأتيه الضعف ؟ وكيف يمكن أن تحوم حوله حائمة من حائمات البطلان ؟

والحديث له مخارج تحميه عن مثل هذه الأحكام المتسرعة التي لم يأخذ البحث المتأني فيها مداه الذي يتطلبه . والحكمُ

على الحديث صحيح ثابت الإسناد، متعدد الطرق الصحيحة والرايات المحققة السلامة من المطاعن بالضعف فضلاً عن البطلان- لا ينبغي اللجوء إليه إلا إذا كان الحديث مشتملاً على أمر يمس أصول العقيدة والإيمان، وإلا إذا ضاقت الحيل العلمية ومخارج البحث عن تأويله تأويلاً يحميه من سمات الضعف والبطلان.

وقد بينا أن لحديث جابر رضي الله عنه في قوله بأولية نزول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ مخارج من التأويل العلمي الصحيح، ذكرها الأئمة من علماء الأمة، وعرضنا ما علمنا منها مع البحث والترجيح فيما سبق.

وقد رجحنا أن سيدنا جابرًا رضي الله عنه سمع النبي ﷺ يتحدث عن فترة الوحي وذكر في حديثه عنها رؤيته الملك الذي كان قد جاءه بحراء، وأنه ذهب إلى أهله وقال لهم: (دثروني. دثروني) فدثروه، فأنزل الله عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾، ولم تكن قصة غار حراء التي نزلت فيها ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ قد بلغت جابرًا رضى الله عنه، أو بلغته دون ما أوحي إليه فيها من آيات القرآن، فلما سُئل عن أول ما نزل من القرآن أخبر بما علم وسمع من النبي ﷺ، وسكت عما لم يعلم، فالحديث صحيح الإسناد، صحيح المعنى، وارد مورد علم المخبِر به، ولا تعرض فيه لنفي

أسبقية نزول شيء من القرآن على نزول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ .

وزعم الإمام النووي أن حكمه بالبطلان على حديث جابر ليس تقليدًا للجماهير، بل تمسكا بالدلائل الظاهرة، ومن أصرحها حديث عائشة، وأن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ نزلت بعد فترة الوحي بعد نزول (اقرأ)– غيرُ مُسَلَّم؛ لأن جماهير العلماء مع عدم أخذهم بظاهر حديث جابر في أن أول ما نزل من القرآن إطلاقًا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ لم يحكموا ببطلانه بطلانًا ظاهرًا، كما حكم النووي، وإنما سلكوا مسالك التأويل الذي يضع الحديث موضعه من القبول الذي لا يتعارض مع حديث عائشة الصريح بأن أول ما نزل من القرآن إطلاقا ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ .

وليس في حديث جابر من رواية الزهري، الذي يقصده النووي بقوله: وإنما نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ بعد فترة الوحي، بعد نزول (اقرأ) كما صرح به في مواضع من حديث جابر نفسه، كقوله: وهو يحدث عن فترة الوحي، إلى أن قال: فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ وقوله: فإذا الملك الذي جاءني بحراء.. وقوله: فحمي الوحي وتتابع، أي بعد فترته– ما يفيد علم جابر رضي الله عنه بأن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ نزلت بعد (اقرأ)، وهذا هو محل النزاع، فأين تصريح حديث جابر بذلك؟ ولا دلالة لقوله: وهو يحدث عن فترة الوحي على أن نزول

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ كان مسبوقًا بنزول (اقرأ) إذ ليس في الحديث تعـرض قط لنزول (اقرأ)، والحديث عن فترة الوحي لا يلزمه الحديث عن سبق نـزول (اقرأ) لهـذه الفتـرة، ولا يلزمه أن يكون جابر رضي الله عنه سمع هذا من رسول الله ﷺ.

وكذلـك لا دلالـة لقوله: فـإذا الملك الـذي جاءني بحراء على أن نزول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ كان مسبوقًا بنزول (اقرأ)، كما أنه لا دلالة لقولـه: فحمي الوحي وتتابع على أن نزول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ الذي كان بعد فترة الوحي كان مسبوقًا بنزول (اقرأ) وهذا السبق هو محل الاستدلال.

والقضيـة بين حديـث عائشـة، وحديث جابـر أن حديث عائشـة قاطع بـأن نزول (اقرأ) كان في لقاء حراء بين سـيدنا رسـول الله ﷺ، وأمين الوحي جبريل عليه السـلام، وهو أول لقاء بدأت به رسـالة محمد ﷺ، وفـي هذا اللقاء نزلت ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ وقصـة هـذا اللقـاء كانت قبـل فترة الوحـي، وأن حديـث جابر في رواية الزهري قاطع بأن نزول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ كان بعـد فترة الوحي، فنزولها متأخـر عن نزول (اقرأ) الذي دل عليه دلالة قاطعة حديث عائشة رضي الله عنها.

وجابر رضي الله عنه حينما سُئل عن أول ما نزل من القرآن، وأخبر سائله بأنه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ كان قد علم من حديث النبي ﷺ الذي سـمعه عن فترة الوحي، المسـبوقة بقصة غار حراء

أن ملك الوحي وأمينه جبريل عليه السلام كان قد جاء النبي ﷺ في حراء، وأوحى إليه ما أوحى، ولم يسمع جابر في هذا الحديث الذي كان عن فترة الوحي شيئًا بخصوص ما أوحى إلى النبي ﷺ في غار حراء، فمن أين تجيء دلالة حديث جابر على أن نزول ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ كان بعد نزول (اقرأ)؟

وفرق شاسع بين دلالة حديث جابر على أن ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ نزلت بعد فترة الوحي، وهذه الفترة متأخرة عن قصة الغار، وبين دلالته على أن (يا أيها المدثر) نزلت بعد (اقرأ) الذي هو المقصود للمستدل.

فالأول، وهو نزولها بعد فترة الوحي مسلمٌ بدلالة حديث جابر عليه، لكنه لا مدخل له في تحقيق المقصود للمستدل، وهو أن ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ نزلت بعد (اقرأ) أخذًا من حديث جابر، إذ ليس في حديث جابر دلالة عليه من قريب أو بعيد.

والثاني وهو نزول ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ بعد نزول (اقرأ) ادعاء لا سند له في حديث جابر المدعى دلالته عليه، وإن كان هو الواقع المدلول عليه بحديث عائشة رضي الله عنها.

فالحكم بالضعف، فضلاً عن البطلان أحرى أن ينصب على كلام النووي في رد الحديث، والحكم عليه بهذا الحكم المتسرع الذي لا يستند إلى شبهة، بله حجة، لا إلى حديث صح صحة قاطعة عن صحابي جليل، وهو جابر بن عبد الله

رضـي الله عنهمـا ، الذي حدث إذ سـئل بما انتهـى إلى علمه سـماعًا من رسـول الله ﷺ ، وهو يحدث عن فترة الوحي التي كان أول ما نزل مـن القرآن عقيب انتهائها وأول عودة الوحي وتتابعه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ فظن أنها أول ما نزل ، فأخبر بما علم . وما كان له من علم بما نزل من قرآن قبلها في غار حراء .

واحتمال علمه بما نزل قبلها له مخرج من التأويل الصحيح -كما ذكرناه سـابقًا- يباعد بين الحديـث وبين الحكم عليه بالضعف ، فضلاً عن البطلان .

مجازفـة أخرى للنووي بالحكم على حديث أبي ميسـرة بالبطلان:

وقـد حكـم الإمام النـووي بالبطلان -أيضًـا- على حديث أبي ميسـرة ، عمرو بن شرحبيل الهمداني الذي استدل به من يقول بأولية نزول سورة (الفاتحة) كالزمخشري ومن تبعه من المفسرين .

وحديـث أبي ميسـرة قـال عنه السـيوطي فـي (الإتقان) هذا مرسـل ، رجالـه ثقات ، وقال فيه البيهقـي -وهو راويه في الدلائـل- : إنه منقطـع . والمنقطع من أقسـام الضعيف ، فإن كان الحديـث محفوظًا من غير هذا الوجـه فيحتمل أن يكون خبرًا عن نزول فاتحة الكتاب بعد ما نزلت (اقرأ) و(المدثر) فلا حجة فيه للأولية المطلقة .

وهذا الاحتمال يحمي الحديث من الحكم عليه بالبطلان ؛ لأن الحديث ليس فيه ما يدل على ادعاء أولية مطلقة لنزول فاتحة الكتاب ، فالاحتمال قائم ، وهو يرد الحديث إلى تأويل سائغ صحيح ، فلا يجوز الحكم عليه بالبطلان ، وقد قدمنا الكلام على حديث أبي ميسرة نصًا وتأويلاً بما فيه الكفاية .

أبعد وأغرب ما قيل في أولية ما نزل من القرآن:

وأبعد ما قيل في أول ما نزل من القرآن ، وأغربه ما ذكره أبو بكر ابن العربي في كتابه : (أحكام القرآن) وتابعه عليه القرطبي منسوبًا إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، قال أبو بكر بن العربي في تفسير سورة (اقرأ) : القول في أول ما نزل من القرآن فيه أربعة أقوال : الأول –هذه السورة– أي سورة اقرأ ، قالته عائشة ، وابن عباس ، وابن الزبير وغيرهم .

الثاني : أنه نزل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ قاله جابر .

الثالث : قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : أول ما نزل من القرآن ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ (الأنعام: ١٥١) .

الرابع : قال أبو ميسرة الهمداني : أول ما نزل فاتحة الكتاب .

ثم قال ابن العربي : والصحيح ما رواه الأئمة ، واللفظ للبخاري ، ثم ساق حديث عائشة رضي الله عنها في بدء الوحي .

وقال القرطبي : في تفسير سورة (اقرأ) : هذه السورة أول

مـا نزل من القرآن في قول معظم المفسـرين، نزل بها جبريل علـى النبي ﷺ، وهو قائم على حـراء، فعلمه خمس آيات من هذه السورة.

وقيل: إن أول ما نزل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ قاله جابر بن عبدالله.

وقيل: فاتحة الكتاب أول ما نزل، قاله أبو ميسرة الهمداني.

وقـال علـي بن أبـي طالب رضـي الله عنه: أول مـا نزل من القرآن ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ﴾.

ويظهـر أن القـول بأوليـة (قل تعالـوا) في النـزول يتصل بإِسـرائيليات كعب الأحبار وتفسـيراته للكتب الإِسرائيلية، فقـد أخرج ابن أبي شـيبة، وابن المنذر عن كعـب الأحبار أنه قـال: أول مـا نزل مـن التوراة عشـر آيات، وهي العشـر التي أنزلـت مـن آخـر الأنعـام ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ وأخرج أبو الشيخ والطبري عن عبد الله بن عدي بن الخيار قال: سمع كعب الأحبار رجلاً يقرأ ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ فقال كعب: والذي نفس كعب بيده إن هذا لأول شـيء فـي التـوراة ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ﴾.

وهذا قول غريب: لا يعرف له سـند يوثق به ويعتمد عليه، فهو قول مرغوب عنه، لا تصح نسـبته إلى عليّ رضي الله عنه،

ولـم نر أحدًا ذكره سـوى ابن العربي، الـذي تقبله القرطبي- فذكره جازمًا بنسبته إلى علي رضى الله عنه، كجزم ابن العربي.

ونسـبة هـذا القول إلى علي رضي الله عنـه من قبيل ما أكثر عليه من الآراء والأقاويل والروايات الإسـرائيلية والفرقية التي يخترعها زعماء الفرق المنحرفة تأييدًا لنحلهم ومذاهبهم.

أو هـو من قبيـل أوهام الـرواة -إن صحت النسـبة- الذين تشتبه عليهم الألفاظ المروية بالمعنى، وليس من المستبعد أن يكون مصدر هذه الأوهام حديث ابن أبي شـيبة، وابن المنذر، وحديث أبي الشيخ والطبري المرويان عن كعب الأحبار، كما تقدم نصهما- إن صحت روايتهما.

ومـكان الوهـم فيهما ظاهـر، لا سـيما إذا كانـت الرواية بالمعني، فقد كانوا يطلقون على التوراة الكتاب الأول، فتكون الرواية عن كعب في الحديث الأول: أول ما نزل من الكتاب، أو الكتـاب الأول عشـر آيـات، وهي العشـر التـي أنزلت من آخر الأنعـام ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾، وتكون الرواية عنه في الحديث الثاني، حين سمع هذه الآيات تقرأ أن قال: إن هذا لأول شيء في الكتاب، أو الكتاب الأول، وحـذف الوصف اختصارًا، وهو يعني التوراة، فأخذها من يرى الروايـة بالمعنى، ورواها بلفظ الكتاب، وتوهم أحد الرواة أنه يعنـي بالكتاب القرآن الكريم، ثم نسـبت إلـى علي رضي الله عنه. والله تعالى أعلم بما هو الحق.

الخطوة الثانية في سير الرسالة

خصائص محمد ﷺ في رسالته لا يحيط بها مداد الأقلام، ولا يستوعبها تسلسل الأفكار، لخلودها بخلود الرسالة التي تضفي عليها هذا التسامي إلى آفاق العزة، ولعمومها آثارًا، وشمولها هديًا في كل زمان، وموطن، وجيل في الحياة بمقتضى عموم الرسالة وشمولها.

ذلك أن لكل جيل من الناس في زمانه وعصره، وتفكيره، وعلمه، ومعارفه،و نظمه وتجاربه، حظه من معرفة خصائص محمد ﷺ في رسالته، ولكل عصر بما فيه من علم ومعرفة أسلوبه في فهم هذه الخصائص التي تستمد عناصرها المميزة لها على سائر الخصائص المميزة للمصطفين من أنبياء الله ورسله من طبيعة الرسالة التي أوتي محمد ﷺ هذه الخصائص من أجلها، إعدادًا له للقيام بحقها وموجباتها الإصلاحية.

بيد أن معرفة هذه الخصائص بالقدر المقدور منها لكل من أجيال الإنسانية على امتداد الحياة وتتابع الأعصر، يستوجب التعمق، ودقة البحث في تتبع أطوار سير الرسالة ومعرفة أحداثها، ورد تلك الأحداث إلى أسبابها وعواملها، ومعرفة حِكَمها الروحانية والاجتماعية بقدر الطاقة البشرية، والوقوف معها عند آثارها وهدايتها، والاستظلال بظل هذه

الهدايـة والعمل بتلك الآثار، تحقيقًا للتكيف الذاتي عند كل مؤمن بهذه الرسـالة، ليكون بعمله وهديه صورة مجسـمة لها متحركة، تمشـي بين الناس، تنادي بلسان حالها عن نفسها، معربة عن حقيقتها العملية في قيادة الإِنسـانية إلى غايتها من الخير والإِصلاح.

وأصل ذلك وعموده الوسـيط معرفة مقدار صلة كل حادث مـن أحداث الرسـالة بنفس محمـد ﷺ، ومعرفـة ارتباط كل حادث من حوادثها بإيمان محمد ﷺ برسـالة نفسه إلى نفسه أولاً وإلى جميع العالمين ثانيًا.

لأن هـذا الإِيمان هو مصدر تلك الأحداث وموردها، ومعنى ذلك أن محمدًا ﷺ في رسـالته رسول يحيا مع الحياة والناس والأشـياء بهذا الوصف الأكرم، وليس لذاته البشرية مظهر إلا بقدر التكافؤ المهيئ لأداء الرسالة أكمل ما يكون الأداء.

وبمعرفـة هذا الارتباط بين إيمان محمد ﷺ برسـالة نفسـه، وأحداث هذه الرسـالة تتكشف الحجب عن تلك الخصائص التي تلاقـي جوها الفكري والاجتماعي الملائـم لظهورها في أي جيل من الأجيال، وفي أي عصر من عصور حياة الإِنسانية على الأرض.

مـن هنا يبـدأ البحث في تصويـر أحداث الرسـالة تصويرًا تحليليًا، يضع كل حادث في مكانه من واقع الحياة، وموضعه من سـير الرسـالة فـي أطوارهـا التي مـرت بها حتـي اكتمل هديها، ويرد كل حادث يعرض له البحث إلى أسبابه ودوافعه،

وموجباتــه المعنوية والمادية، بقدر ما تصل إليه طاقة البحث، مع استظهار حكمة كل حادث يرى البحث أن له حكمة متاحة للنظر والإدراك والمعرفة.

وسـيتجنب البحث الاعتماد على مجـرد الروايات الواردة هنا وهناك من كتب السيرة إلا بعد تمحيصها سندًا ومتنًا، فلا يقبل إلا ما يثبت سندًا، ولا يتعارض متنًا مع أصول الإيمان.

وليس معنى ذلك أن البحث يزعم أنه سيتقصى ويستوعب الأحداث والوقائع، فذلك منال دونه إحصاء نجوم السماء.

بدء رسالة محمد ﷺ كان بأول خطاب قرآني وجه إليه من الله:

بدأت رسالة محمد ﷺ بمفاجأة الحق له في غار حراء، إذ جاءه الملك فاسـتقرأه حتى استفرغ بشريته، واستصفى روحانيته، ثم أقرأه أول ما وجهه الله إليه من خطاب قرآني فقال له:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾

(العلق: ١- ٥)

وعـاد محمد ﷺ من جواره فـي متعبده بحراء بهذه الآيات إلى أهله رسولاً إلى العالمين، وكانت معالم النبوة قد تحققت له قبل ذلك بمراتب وحيها الخاص، إعدادًا وتمهيدًا للرسالة، وشـعر ﷺ بفداحـة العـبء الـذي حمـل أمانتـه، وتمثـل له المسـتقبل بما فيه من شـدائد الكفاح ومحن البـلاء، وأثقال

التبليغ، والدعوة إلى رسالته، ليخرج الحياة من ظلمات الجهل والضلال إلى نور العلم وهداية الإيمان، وهو المنفرد وحده بتحمل هذا العبء أمام مجتمع يعج بألوان من الفساد الاجتماعي، والضلال العقيدي، والانحراف الخلقي ومظالم الاستبداد، وانتشار الأباطيل، وانتحال الأكاذيب.

مجتمع يعبد أصنامًا نحتوها بأيديهم، يسفكون الدماء، ويؤلهون المال والثراء ويرتكبون الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ويقتحمون الشرور، وينكرون البعث والنشور.

رسالة محمد ﷺ نزلت لتهدم الشر، وتبني الخير:

ورسالة محمد ﷺ تقتضيه أن يغير ذلك كله، فعليه أن يهدم أطواد الشر، ويقوض معالم الفساد، ويقيم منائر التوحيد، ويقضي على الشرك، لتخلص العبادة بجميع مراتبها وصورها لله الواحد القهار.

وعليه أن يقيم مكان كل باطل يمحوه حقًا يدعمه بالبرهان، ومكان كل ضلال يقتلع جذوره من العقول والقلوب والأرواح هديًا يشرق نوره، فتضيء به العقول، وترشد به القلوب، ومكان كل شر اجتماعي يبيده بدعوته وهديه، خيرًا يزرعه بعمله، ومكان كل ظلم يرعبله عدلاً ينشره.

ومكان كل رذيل يمزق أديمها فضيلة يؤسسها، ومكان كل سيئة ينفر منها إحسانًا يحببه إلى النفوس لتتشرب محبته، ومكان كل عبث وفوضى اجتماعية تتهاوى أمام دعوته نظامًا يقوم الناس في ظله بالقسط والحق، ومكان كل تقاطع وتدابر

إخـاء ومواسـاة، بل إيثـارًا وحبًا، ومـكان كل تسـلط بالبغي والكبريـاء الآثمـة تراحمًا ومسـاواة، ومـكان الفرقة بدعوى الجاهلية وحدة تقوم على دعائم الإخاء الإيماني في الإسلام.

وإذا كان هـذا هو حـال مجتمع قوم محمد ﷺ الذين كانوا أول مدعو إلى رسالته، وكان هذا هو حاله وموقفه ﷺ من هذا المجتمع المحصور في جزيرته وأرضه، بين جبالها ووديانها، فما شأن مجتمعات الدنيا وراء هذا المجتمع المليء بالمفاسد والشرور؟ وما حاله وموقفه ﷺ مع تلك المجتمعات الضخمة العريضة المنتشـرة فـي أرجاء الأرض، وهي مدعـوة بدعوته، مطلوب منه أن يبلغها رسالته؟

لقـد كانـت تلك المجتمعـات فيما وراء الجزيـرة العربية أفسـد حالا مـن مجتمع قـوم محمد ﷺ، وكانـت أصلب في فسـادها عـودًا، وأقصى شـكيمة، وأبعـد في الضـلال غورًا، وأعمق في الشرق قرارًا، ذلك لأن مجتمع قوم محمد ﷺ ضل طريـق الحق والخير جهالـة، وتلك المجتمعـات ضلوا عنادًا وبغيًـا وهم يعلمون، ولا ريب أن ضلال العلم أشـد ترسـبًا في قرارات النفوس من ضلال الجهالة:

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (الجاثية :٢٣)

وكان ﷺ قـد رأى ذَرْوًا من حال أحد أكبر وأعظم مجتمعات الدنيـا ، وأكثرها علمًا وحضارة ومعرفـة ونظامًا اجتماعيًا ، رأى صورة لجانب من المجتمع الروماني في سـفراته إلى الشام وهي يومئذ رومانية البزة مع عمه أبي طالب ، وكان ﷺ يومئذ في ذروة الطفولية ، ومطالع الشـباب ، ورأى هذه الصـورة لهذا المجتمع الرومانـي مرة أخرى ، يوم أن سـافر بمـال خديجة بنت خويلد ، يتجـر لها قبـل أن يتزوج بها ، وكان يومئذ في سـواء الرجولية ، وهـو الذكي ، اللبيب ، اللماح الأريب ، الذي يزن الأمور بموازين الاستقامة السلوكية ، وقيم مكارم الأخلاق .

فإذا بذلك المجتمع المتحضر ، مستغرق التفكير والعقيدة في خضم آسـن من الوثنية المفلسفة بالجدل الأجواف ، حول الناسـوت واللاهوت ، والأب والابـن وروح القدس ، ثلاثة هي واحـد ، وواحد هـو ثلاثة ، وكأنمـا العقل الإنسـاني في غيبة أصحاب القبور ، إلى جانب ما هو مسـتغرق فيه اجتماعيًا من مسـتنقع السـلوك المنحرف ، الذي ينز بالمفاسـد الخلقية ، والرذائـل المقنعة ، فهو مجتمع سـادة وعبيد ، سـادة لا تقيد سـلطان سيادتهم قوانين ولا أعراف ، وعبيد ليس لهم سمات الإنسـانية إلا أنهم يتحركـون في ظل القهـر الفاجر ، والبغي اللعين أداء لشهوات سادتهم .

وكان محمد ﷺ قد ترامى إليه من أحوال المجتمع الفارسي المغمـور بظلمات الوثنية الماديـة الإباحية ، مما تناقله أرباب

الرحــلات من تجــار قريش وغيرهــم، فإذا به مجتمع مشــرك كفــور، تتعبده الأباطرة والحكام والرؤســاء، يســتبيحون منه الحرمــات، ويفتكــون بمقومات الحيــاة فيه، ليس للشــعب أفرادًا وجماعات فــي نظامهم الاجتماعي وجود إلا كما يوجد العبيد سجدًا في محاريب العبودية الذليلة، فهو مجتمع ينخر فيه سوس الانحلال وتتناوشه أعاصير الفناء.

وهــذان المجتمعــان: الروماني، والفارســي، كانــا يومئذ عنــوان الحياة المتحضــرة، الزاخرة بصنوف التــرف، وألوان المعــارف، والنظــم السياســية والاجتماعيــة، والأوضــاع القانونيــة، والمبادلات المصلحية فــي التجارات والزراعات، وسائر المنافع والأعمال.

وهمــا أقرب الدنيا إلى جزيرة العــرب التي اختارتها العناية الإلهيــة لتكون مثابة لخاتمة رســالات الســماء، واختارت من بيــن أقوامها محمدًا ﷺ ليكون حامــل أمانتها، والقيام بأعباء تبليغهــا، ليخرج بها الناس في مجتمعات الدنيا تحقيقًا لعموم رسالته زمنًا وجيلًا من ظلمات الشرك والوثنية، بجميع مظاهرها وســائر معالمها، ومن الجهالة الضالة، والظلم والفســاد، إلى نــور التوحيد، والعلم، والعدل، والإصــلاح، والخير، والحق، والهــدى، يقيــم مجتمعًا موحد الإحســاس بإنســانيته، موحد الشــعور بإيمانــه وعقيدتــه، وإخــلاص التعبد لخالقــه، موحد الآمال في مستقبله، متعاونًا في تفكيره، وبناء حضارته.

وأي مجتمع وراء هذه المجتمعات في أطراف الأرض، شرقها وغربها، جنوبها وشمالها كان يحمل خيرًا في عقيدة أو سلوك خلقي، أو نظام اجتماعي، ضلت عنه شعوب هذه المجتمعات؟!

لو كان ذلك لنقلته لوافح الرياح في دنيا الناس إلى هذه المجتمعات ولعرف بسماته منسوبًا إلى أصحابه الذين يعيشون في ظله.

وقد كشف الغيب عن أسواء في العقيدة وشرور في التعبد ورذائل في الأخلاق وضلال في التفكير فاش في شعوب تملأ أطراف المعمور من الأرض.

نعم كان لدى الإغريق فلسفات وفلاسفة وعلوم ومعرفة وكان لدى أساتذتهم الفراعنة علوم وطلسمات وسحر، وكان لدى قدماء الصين فن وحكمة، وكان لدى براهمة الهند ألوان من المعرفة المتصوفة المتزهدة، ولكن هذا كله لم يكن خيرًا مما كان لدى الفرس والرومان من علوم وحضارة.

والتاريخ يذكر أن الرومان على عهد ظهور دعوة الإسلام كانوا ورثة الفلسفة الإغريقية والعلوم الفرعونية، فكانوا بما ورثوا على ما كانوا عليه من فساد اجتماعي وسوء عقيدة.

وقد كان الفراعنة مثلاً مضروبًا في سوء كفرهم وشركهم بالله، واتخاذهم ملوكهم وحكامهم أربابًا يعبدونهم من دون الله تعالى، وهاهي ذي آثارهم تحمل لعنات الشرك وعتو الكفر

مرسومة فوق معبوداتهم التي صوروها في متاحفهم ومقابرهم.

أما فن الصين وحكمتها، ومعارف الهند وصوفيتها، فكانت خليطًا من مظاهر الحياة المادية وضروب الارتكاس الروحي والتزهد القاتل للحياة، ولم تُؤْثَر في تلك الفنون والمعارف كلمة تدل على معرفتهم بالله وتوحيده، وإخلاص العبودية له، والناظر في طقوسهم الدينية وأوضاعهم التعبدية على ضوء كتبهم القديمة المقدسة عندهم لا يجد إلا أوضاعًا وثنية تسيء إلى السلوك الخلقي، والتقليد الجاهلي، ولا وزن لأية فلسفة وفن ومعرفة لا تقوم على أساس العقيدة الإيمانية التي تعرف لله تعالى حقه في إخلاص العبودية له وحده.

تمثل محمد ﷺ ذلك كله في المجتمع البشري، وتمثل معه موجبات رسالته التي حَمّله الله تعالى أمانة تبليغها إلى هذا المجتمع في أقطار الأرض بادئا بمجتمعه الخاص، في بلده وقومه وأمته العربية في جزيرتها القاحلة الجرداء، ذات الجبال القفرة التي تحيط بها إحاطة السوار بالمعصم، وتمثل إلى جانبه وحدته وتفرده، وهو يحمل على كاهله عبء ما كلفه، فناءت بحمله قوى بشريته وهي قوى محكمة النسج، عظيمة الاحتمال، فكان لابد له من قوة فوق قوى أقوى قوى البشرية لتكون عدته في سبيل الوفاء بحق أمانة رسالته تحملاً وأداء وتبليغًا بالقول والعمل والأسوة.

وعاد ﷺ من جواره في متعبده بحراء إلى بيته ليلم بأهله،

ويستنشق عبير الأنس من نسيم مودتهم، ويستروح روح التثبت من كلمات زوجه سيدة نساء العالمين، العاقلة اللبيبة، المتوسمة المتفرسة، السيدة خديجة رضي الله عنها، وهو يحمل في سماته ومشرق وجهه الكريم نور رسالته الخالدة، وفي قلبه وعقله صدق العزيمة على القيام بواجبه نحو رسالته.

معجزة التحدي في رسالة محمد ﷺ معجزة علمية روحانية:

وكان أول ما نزل عليه من آيات بدأت بها رسالته هو بدء معجزته التي أمر أن يتحدي بها الإنس والجن، فعرف أنه انفرد من بين أنبياء الله ورسله بمعجزة مباينة لسائر معجزات الأنبياء والرسل، فهي ليست معجزة مادية تقسر الناس قسرًا، وتأخذ العقول كرها إلى الاستجابة لدعوته والإيمان برسالته، فعرف أنها لا تكون عصا تنقلب ثعبانًا يسعى، ويتلقف سحر السحرة الذين لم يملكوا أنفسهم أمام هذا التحدي القاهر حتى آمنوا برب هارون وموسى، وعرف محمد ﷺ أن معجزته المتحدية لا تكون إبراء أكمه، مسح بصره، ولا إبراء أبرص استعصى برؤه على طب أبرع الأطباء في دنيا العلم، وأنها لا تكون إحياء ميت وُسِّد جسده أطباق الثرى، ولا نفخًا في صورة من طين، فتكون طيرًا حيًا يطير على مرأى أعين الناس وحسهم، ولا ناقة تخرج من صخرة، وثقبها بين يديها يمشي ويرجو، ولا نارًا تفقد كل أثر وضع في طبيعتها قهرًا لهذه الطبيعة، وتمزيقًا لنواميسها، ولا شيئًا يقلب أوضاع الحقائق المادية، ويغلل العقول بسلاسل

العجـز القاهر عـن الوقوف أمامها مفكـرًا، متأملاً ليعلم ويعرف ويدرك ويفقه، ويستجيب إلى الإيمان بغير إكراه.

فمعجـزة محمد ﷺ التي وقع بهـا التحدي كانت منذ أول لحظـات وجودهـا معجزة علميـة، تخاطب العقـل وتتحداه، وتنادي القلب والوجدان، لا تكره أحدًا على الإيمان بها لعجز عقله عن فهم حقيقتها، كالمعجزات المادية، ولكنها معجزة تدعـو كل أحـد إلى النظـر فيهـا والتعمق في فهـم حقائقها، وتدعوهـم إلى الإيمـان بها وبرسـالتها وتصديق رسـولها إذا تأملوها بعقولهم وقلوبهم وأرواحهـم، ووجداناتهم، وفهموا ما جـاءت به من علم نافع، وحكمة مسـددة، ومعرفة فاضلة، وأدب يعتصم بعقيدة التوحيد لله تعالى، خالق كل شيء.

ومـن هنا أخبـر النبي ﷺ بفيصل ما بيـن حقيقة معجزته، ومعجـزات إخوانه الأنبياء والمرسـلين من قبلـه، وأخبر بآثار معجزته ومعجزاتهم في تحقيق الإيمان برسـالته ورسـالتهم، فقـال فيمـا يرويـه الصحيـح: (مـا من نبـي إلا أوتـي أي من المعجـزات ـما على مثله آمن البشـر أي كرهًـا وقهرًا، وكان الـذي أوتيته أي المعجـزة المتحدية وحيًا أوحـاه الله إليّ، أي علمًا وهداية ليس فيه قهر للعقول، ولا إكراه للنفوس، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة).

ومعنـى ذلـك أن معجزتـه خالدة بخلـود رسـالته، يتجدد إعجازهـا بتجدد الحياة فـي تفكيرها ومعارفها، وقد بسـطنا

القول في ذلك بسطًا مسهبًا عند وقفتنا مع الذين فسروا (الخشية) تفسيرات متخرصة في قوله ﷺ لأهله: (لقد خشيت على نفسي) وهو يحدثهم عما حدث له في مفاجأة الغار، حيث بدأت رسالته، وأبدى لهم في حديثه تخوفه أن تتكاءده العقبات وهو يبلغ رسالة ربه، وكان قد ظهر على سمته البشري أثر هذا التخوف، فشجعته زوجته الوفية الأمينة، وذكرت له ما تعالم بين قومه من منن الله تعالى التي فطره عليها من مكارم الأخلاق، التي جرت سنة الله في خلقه ألا يُخزي من يتحلي بشمائلها.

عزيمة الكفاح الصبور كانت عدة محمد ﷺ في تبليغ رسالته:

وبهذا عرف محمد ﷺ أن رسالته رسالة كفاح صبور، ونضال شاق مرير، لا مجال للراحة في أداء واجباتها، عرف ﷺ أن عليه في سبيل تبليغها إلى الناس- وهم على ما هم عليه من شر وفساد- أن يتحمل من فوادح البلاء، وشدائد الإيذاء بالقول والفعل من أعداء الحق والعدل والإيمان بالله الواحد الأحد ما تنوء بحمله الرواسي الشامخات.

ومن الطبيعي في تأثرات الطبائع البشرية أن يحدث هذا التفكير مع تمثل المشاق التي تعترض السير في تبليغ الرسالة أثره في سمات محمد ﷺ البشرية، فرعب وأرعد بدنه إشفاقًا على نفسه أن تقف العقبات المتمثلة في مجتمعه من رواسب الجاهلية دون بلوغ غايتها في أداء أقصى واجباته في تبليغ رسالته.

فطلب إلى أهلـه أن يزملوه، ليهدأ روع تفكيره في أعباء ما ينتظره من شدائد المواجهة مع هذا المجتمع الفاسد المفسد، ويستجمع عزائمه لينهض بأثقال ما حمل مهما تكن العقبات والحواجز، فزملوه حتى ذهب عنه ما كان يجده، ونهض عائدًا إلى مأنسه الروحي، ومتعبده في حراء.

وفتـر الوحـي أيامًـا، لم ينـزل عليـه فيها قرآن، ليسـتجم ويكتمـل إعـداده نفسـيًا، ويزداد شـوقه إلى تنـزلات الوحي بآيات ربه، ويعظم تشـوقه إليه، ويتسـامى تطلعه إلى إشراقه، ليتلقاه بعزيمة صادقة، وقوة روحانية راسخة، ورغبة مصممة.

وقد تحقق ذلك كله في نفس رسول الله ﷺ حتى كان من شدة تشـوقه إلى تنزلات الوحي، وتشـوفه إلى تلقي آيات ربه، يذهب فيتنسـم نسـائمه في منازله، ويتردد عليها ليستطلع طلائعه في معاهـد تنزلـه، وهو ﷺ على أكمل مراتـب اليقين بفوزه بأعظم نعمة من ربه، برسـالته الخاتمة الخالدة، حتى اسـتحوذ الشـوق علـى مشـاعره وإحساسـاته، ومداركه، فلـم يترك عنـده مكانًا لغيره، وكان ﷺ آنئذ كأنما عاد إليه حاله في مدى قوة بشـريته المحدودة سـاعة لقيه الأمين جبريـل لأول مرة في مفاجأة الغار، روحانيًا خالصًا، لم تقو بشريته على احتمال أشواقه للوحي الذي ارتفع به فوق آفاق الحياة، فكان إليه شوقه، وبه أنسه.

ولمـا أتـم ﷺ جـواره خرج مـن متعبده عائـدًا إلـى بيته ليلم بأهلـه، فتبدى له جبريل عليه السـلام في صـورة روحانية عالية،

هاله منظرها ؛ لأنه لم يسبق له أن رآه على مثلها ، ولا كان يتوقع أن يراه عليها ، وهو في غمرة الشوق إليه والتشوف للقائه ، فكانت مفاجأة أخرى ، عاوده عندها بمقتضى تأثراته البشرية بعض ما كان وجده في المفاجأة الأولى مفاجأة الغار والغط ، والإقراء ، فرعب ، وانجلى عنه تجلي جبريل في صورته الملائكية ، وذهب إلى أهله ، وعلى سمات بشريته أثر ما كان من هذه المفاجأة ، وقال لهم : (دثروني ، دثروني) فدثروه ، وجاءه جبريل بقوله تعالى :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ (المدثر : ١- ٥)

خمس آيات بدأ بها الوحي بعد فترته ، كخمس آيات بدأ بها أول تجلياته ، وكانت التجليات التي افتتح بها تنزل التنزيل من سورة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾

تصويرًا لأخص خصائص الرسالة ، التي تحمل عنوان الإعجاز البياني ، إلى جانب الإعجاز المعنوي الفكري ، في معجزة القرآن الكريم .

بيان يحقق معاني آيات بدء الوحي بعد فترته:

وكانت آيات بدء عودة الوحي بعد فترته تهييجًا لعزيمة رسول الله ﷺ لينهض بعبء ما كلفه من تبليغ رسالات ربه ، فيمضي قدمًا بدعوته ، لا يبالي العقبات والحواجز ، كما كانت إثارة لحوافز الجد في الدعوة إلى الله تعالى .

كان هذا النداء المتلطف ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ إيذانًا بشحذ العزائم، وتوديعًا لأوقات النوم والراحة، والتلفف بأثواب الهجوع والتلبث، انتظارًا للأحداث يسوقها الزمن في سيره، فتتحكم بواقعها في سير الرسالة، التي يجب أن تنطلق في سيرها حرة من كل قيد يقعد بها عن المضي إلى غايتها الإصلاحية.

كان هذا النداء المتلطف ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ المثير إشعارًا بطلب الجد الجاد في الأمر، جدًا يسبق الأحداث، ولا ينتظرها ويسابق الزمن، ولا يني في حركته، متوثبًا إلى غايته.

ولهذا جاء عقب هذا النداء المتلطف المثير الأمر الجازم بالنهوض، والتشمير المصمم، فقيل خطابًا للنبي ﷺ بوصفه الذي كان عليه ساعة المواجهة بالخطاب (قم) أي انهض بكل ما آتيناك من قوة العزم في حزم مشمر، ودع عنك ما أنت عليه من التدثر؛ لأن الأمر بالقيام في هذا المقام لا يراد منه مجرد النهوض، وترك التلفف في الثياب، وإنما يراد منه العزيمة الناهضة في قوة حازمة، تتحرك ماضية في اتجاه ما كلفه من صدق العمل، تحقيقًا لأداء واجب التبليغ.

فتعقيب النداء المتلطف المثير بالأمر بالقيام عنوانٌ على أقصى ما يطلب من الاهتمام، ولهذا ربط به الأمر بالإنذار بحرف (الفاء) المقتضي ترتيبه على تحقيق القيام بمعناه المقصود، كما يرتبط الجواب بالشرط في الترتيب وتعليق الحصول في واقع الوجود.

والإنذار هو التخويف من بطش الله وانتقامه ممن يخالف عن أمره، ويلحد في آياته، ومجيء الأمر بالإنذار في الخطوة الثانية من ابتداء الرسالة بعنوانها الأخص ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ ملائم أشد الملائمة، ومناسب أقوى المناسبة لحال المواجَهين بالدعوة، المطالبين بالإيمان بها في بوادر إشراقها؛ لأنه لم يكن فيهم من دواعي التبشير ما يقتضي إيناسهم بل هم أحوج إلى الإزعاج والإرهاب، ليقتلعهم من سوء ما ارتطموا فيه من أوحال وفساد حتى ينظروا في حالهم، ويتفكروا في مآلهم، عسى أن يلحقهم بعض الندم، فيفيقوا من سكرتهم ويستيقظوا من غفلتهم، ويتدبروا شأنهم، ويثوبوا إلى رشدهم، فيفيئوا إلى ظل من الإيمان والهدى، ويجيبوا داعي الله، ويؤمنوا برسالته، ويهتدوا بهديه، ويعتصموا بحبل دعوته، تاركين ما هم عليه من وثنية بليدة، وضلالة جاهلة، وانحرافات خلقية، وفساد اجتماعي، وتظالم فاجر، يستعبد فيه الغني الفقير، ويستبد فيه القوي بالضعيف.

وفي مجيء الأمر بالإنذار منفردًا عن التبشير في أول خطاب وجِّه إلى النبي ﷺ بعد فترة الوحي إيذان بأن رسالته تعتمد على الكفاح الصبور، والنضال المرير، ليكون ﷺ على يقين من أمر رسالته، فيما سيلقاه في سيرها، فيعد نفسه لتحمل ما ينوبه من صنوف البلاء والإيذاء، وليعلم ﷺ أن كفاحه يعتمد أول ما يعتمد على الحجة التي توقظ العقول من غفلتها،

وأن نضالـه يعتمد على الصبر والمصابرة، ليسـتطيع القضاء علـى الطغيان الفاجـر الذي يملأ حياة أحلاس الشـرك وعبيد الوثنيـة(٧)، وينقـذ المعذبيـن في الأرض من المسـتضعفين، ويشعر أبناء الإنسانية قاطبة بحقهم في الحياة والعيش الكريم في ظل من الحرية الذاتية التي تشـمل الفرد والجماعة والأمم والشـعوب، حرية لا يعبد فـي ظلها إلا الله وحده يخرجهم بها من ظلمات الشرك ومفاسد الأخلاق إلى نور الإيمان والتوحيد ومكارم الفضائل.

ثـم زادت الآيات فـي تقوية عزيمة النبي ﷺ، وشـد أزره، وحضـه على المضي قدمًـا إلى غاية ما أمر بـه، غير عابئ بما يعترض طريقه من عقبات، مهما يكن شأنها فقيل له: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي لا تعظم شـيئًا من أمـور الخلق، ولا يتعاظمك منهم شـيء، فلا تتهيب فعـلاً من أفعالهم، ولا تخشـى أحدًا منهم، ولا تعظم إلا ربك الذي تعهدك وأنت في أصلاب الآباء وأرحام الأمهـات، فرباك علـى موائد فضله، ورعاك بإحسـانه وجوده حتى أخرجك للناس نبيًا ورسـولاً، بعـد أن أعدك خلقًا وخُلقًا لتحمل أمانة أعظم رسالاته.

وفـي إضافـة الاسـم الأكـرم بعنـوان الربوبية إلـى ضمير الخطـاب الموجـه للنبي ﷺ تأنيس له ﷺ في سـير رسـالته

(٧) أحلاس الشرك: ملازمو الشرك (المجلة)

إلى غايتها، وتعريف له ﷺ بأنه في وحدته وانفراده بحمل عبء تبليغ دعوته، وما سيلاقيه في سبيلها، يأوي إلى ركن شديد، ويعتصم بقوة ربه القوي القهار، ذى البطش والانتقام من أعدائه وأعداء رسله، ورسالاته، ومن هنا يظهر سر تقديم الاسم الأكرم بإضافة التخصيص والتشريف على فعل الأمر المقرون بحرف (الفاء) في هذه الآية الكريمة ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ ليفيد أن كل تعظيم وتكبير وإجلال حق لله تعالى وحده، لا يشاركه فيه أحد، أو شيءٍ من مخلوقاته.

وفي هذه الإضافة أيضًا بهذا الأسلوب الحاصر، وعد كريم من الله تعالى، وحفاوة رحيمة برسوله محمد ﷺ، وتذكير له بنعم الله عليه، في سوابق فضله، ولواحق مننه وأنعامه، والتذكير بالنعمة يتطلب القيام بحق شكرها بما يتناسب مع قدرها.

وقول الله تعالى لنبيه ﷺ في الآية الرابعة من هذه الآيات البينات ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ تحضيض على قيامه في الإنذار قيامًا طاهرًا زاكيًا- إبقاءٌ على ما فطر عليه من الكمال الخلقي، وهو أعظم عون على النهوض المشمر في تبليغ الرسالة، فهو من تطهير النفس وتزكيتها، وتكميلها بأرفع الفضائل، وأكرم المكارم، لأن النبي ﷺ وهو الطاهر المطهر، النظيف المنظف، لا يقال له في أول خطوات سير الرسالة: طهر ثوبك، أي جلبابك الحسي الذي تستر به بدنك، وتتجمل به

في حياتك مع الناس وتلبسه درءًا للفحة الحر، ولذعة القر، ولمَّا يدخُل الناسُ في ساحة الإِيمان، ولما تنزل شرائع الإِسلام من التطهير الحسي والنظافة المادية حتي يقال: إن هذا خطاب تقصد به الأمة لارشادها إلى التجمل والتنظف.

وإنما المقام مقام التسامي إلى آفاق الكمال المعنوي في تهذيب النفس، وإعدادها بأكمل الأخلاق الاجتماعية التي تشتد إليها حاجة الداعي إلى الإِيمان برسالة الله تعالى، التي جاءت لتقوض دعائم الفساد التي يقوم عليها بناء المجتمع البشري يوم ذاك، ولتبنى مكانها دعائم تقوم عليها صروح الخير والإِصلاح.

فكأنه قيل له ﷺ، فأنت على طهرك وتطهرك بفطرتك في كمال إنسانيتك بما جبلك الله عليه من أكرم مكارم الأخلاق، وبما حباك به من نبوته ليعدّك بها ليومك هذا أحوج إلى أن تزداد في تطهرك النفسي، فتزداد من المكارم في حياتك مع الناس والأشياء، فأنت اليوم رسول الله إلى العالمين، وكمال الرسالة في كمال الخلق الاجتماعي، صبرًا، وحلمًا، وعفوًا، وإحسانًا، ودُءوبًا على الجد في تبليغ الدعوة إلى الله تعالى، لا يثنيك إيذاء، ولا يقعدك عن المضي إلى غايتك فادح البلاء.

ثم خُتمت الآيات الكريمات بما عاد بها إلى ما بُدئت به من تهييج عزيمة النبي ﷺ وإثارة حوافز الجد والنصب في سبيل القيام بتبليغ رسالته، فقيل له: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ أي إنك

في تساميك عن النقائص، وتنائيك عن التدنس بصغائر الأمور التي تخدش إنسانيتك وتمس كمالك في رسالتك كالذي هجر أسباب ذلك تطهرًا وتعبدًا بعد أن كان له هذا التطهر جبلة وفطرة، فلتدم على ما أريد لك من الاتساق بين فطرتك في تطهرها، وبين كسبك هذا التطهر تعبدًا وتكليفًا.

وتفسير (الرجز) بالأوثان في قول أبي سلمة بن عبدالرحمن -كما جاء في حديث البخاري- تفسير بأول وأهم ما يجب هجره والتباعد عنه تكليفًا وتعبدًا، ولو كان مهجورًا فطرة وتطهرًا، وفي التعبير بالهجر مع تحقق الترك والتباعد منه ﷺ لطيفة بيانية؛ لأن الترك الجبلي الذي يكون أثرًا من آثار الفطرة لا يقتضي وجود شعور به ونية تقصده، وأما الهجر فلا يتحقق معناه المقصود بالتكليف إلا إذا كان الترك مشعورًا به في القلب، مقصود الوقوع في الوجود، منويًا بالعزيمة وإرادة التحقق.

فكأنه قيل له ﷺ: ليكن قصدك ونيتك في تركك ما تركت فطرة وطبعًا هجره تكليفًا وتعبدًا، لتكون قدوة أمتك، وعنوان تطهرها بهداية رسالتك.

وهذا كله من قبيل الإعداد والإقدار على تحمل أعباء الرسالة، وأثقال التبليغ.

الاستسرار بالدعوة

بهذا الإعـداد القـوي، والتربيـة المحكمة، والدفـع المتوثب، وتهييج العزيمة وشحذ الإرادة، وإثارة حوافز الجد الناهض، وصرامة التوجيه من كل ما اشـتملت عليه آيات بدء عـودة الوحي بعد فترته من دواعي التشـمير للقيام بواجب تبليغ الرسالة، إلى جانب ما كان في فطرة النبي ﷺ، وجبلته من خصائص الاصطفاء لرسـالة الخلود -نهض محمد ﷺ ممتثلاً أمر ربه، مجيبًا داعي الله في تبليغ رسالته.

وكان قد استجاب له ﷺ من قبل نزول آية الإنذار العام، مطلع رسالته بفجيء الحق، ومجيء الملك إليه برسالة ربه في أول لقاء يقظي بغار حراء، ونزول أول ما أنزل الله تعالى من القرآن الكريم، إيذانًا بميلاد الرسالة، وبدء وحيها - أبو بكر الصديق، والسيدة خديجة رضي الله عنهما، واستجاب مع كل منهما خلصاؤه الذين سـمعوا النبأ العظيم، فلم يسألوا عنه، ولم يتساءلوا، بل أسرعوا إلى الإيمـان فآمنوا، وأصفياؤه الذين لم يتـرددوا في قبول دعوة الحق منذ سـمعوا منادي الإيمان ينـادي أن آمنوا بربكم فآمنوا، فدخل مع خديجة في بحبوحة الإيمان أهلُ بيت النبي ﷺ، بناته الطاهرات المطهرات: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة سـيدة نسـاء العالميـن، وربيب النبـوة وحضينها علي بـن أبي طالب، والحِـب زيـد بن حارثة مولى رسـول الله ﷺ، فلـم يكن في بيت رسـول الله ﷺ إلا مؤمن بدعوته، مصدق برسالته، مغمور بأنوار هدايته منذ بدأت الرسالة بإنزال ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾.

ودخل بدعوة الصديق رضي الله عنه إلى ساحة الإيمان مَنْ رفعهم الله تعالى إلى ذروة السبق، فقبلوا دعوة الحق، ممن أنس إليهم أبو بكر، وعرف فيهم مخايل العقل، فحدثهم عن الصادق الأمين محمد ﷺ، وما أنزل الله عليه من خير وهدى، اصطفاه لتبليغه للعالمين، فأسرعوا مجيبين، وأجابوا ملبين، وذهب بهم الصديق إلى رسول الله ﷺ، فأسلموا بين يديه إذ دعاهم إلى الهدى، فآمنوا بدعوته وصدقوا برسالته، فكانوا رعيل السبق إلى الإسلام، وطليعة الإيمان برسالة محمد ﷺ، فهم أسبق السابقين، بعد الصَدّيقين أبي بكر وخديجة رضي الله عنهما، وبعد خواص البيت النبوي الكريم، وبهذا السُّبَّق كان هؤلاء السبق عمد الدعوة ودعائمها، وألسنة الصدق الداعية إليها.

حكمة الاستسرار بالدعوة

بيد أن رسول الله ﷺ رأى بتسديد الله وتوفيقه أن الحكمة تقتضيه في أول خطوات سير الدعوة أن لا يسرع إلى معالنة مجتمع قومه المتعزز بوثنيته، المتعظم بشروره ومفاسده الخلقية والاجتماعية، وأن لا يجهر لهم بتبليغ رسالته إليهم، وأن يتخذ من بدء الإنذار العام تمهيدًا يسري فيه صوت الدعوة إلى المجتمع هادئًا، هامسًا، ليهيئ القلوب والأسماع التي تقبل الصيحة المدوية عندما تحين فرصتها في الغد القريب، فلتكن الخطوة الأولى في سير الرسالة، وامتثال الأمر بالإنذار العام بمثابة إلقاء البذر في الأرض الصالحة المستصلحة

المتخيرة، رجاء أن تنبت وتثمر حتى تصل الدعوة هادئة قوية الجذب إليها إلى قلوب مستعدة لتقبل دعوة الحق، وإلى عقول مستنيرة بنور الفطرة الأصيلة الصافية، ليكون هؤلاء الذين سبقوا إلى الاستظلال بظلها -وهي غضة أقرب ما تكون عهدًا بالسماء، تسري إلى القلوب والعقول والوجدان بدفعها الذاتي، وقوة تسربها إلى شرايين الحياة في النفوس، كما يسري نمير الماء إلى أفئدة الظمأى في هجير الصحراء ولفح السموم- عُدَّة كفاحها، وقوة دعمها، وصلابة عودها، عند الجهر بها للذين على قلوبهم أقفالها، عنادًا، وجحودًا واستكبارًا في الأرض بغير الحق، وهؤلاء المستكبرون هم الذين يحتاجون من الذين آمنوا برسالة محمد ﷺ إلى صبر الكفاح، ومصابرة المحاجة، ونضال العناء ومجاهدة البغي، ومقاومة الظلم الملحد، والاستبداد الكفور.

ومن ثم آثر رسول الله ﷺ الاستسرار بالدعوة، والاستخفاء بالتبليغ في مطلع سير الرسالة بعض الوقت، ليعد لها أرضًا صلبة تقف عليها في كفاحها ونضالها.

ولم يكن الاستخفاء بالدعوة واستسرارها موقفًا سلبيًا لا حركة فيه، ولكنه كان أبلغ موقف إيجابي في دوافعه وآثاره؛ لأنه كان موقف التأسيس والإعداد، والتربية النضالية، والكفاح الصبور، وتخير المواد لبناء المجتمع الإسلامي الذي تحيا في ظله الرسالة الخالدة، لتكون هذه المواد التي

يبني منها هذا المجتمع قوية التماسك، شديدة الصلابة في إيمانها، موحدة الحركة إلى غايتها، فلم يكن ﷺ وسُبَّقُ أصحابه يُدْعُون في هذه المرحلة كلَّ كَفَّار عنيد، جواظ[٨] جحود، وإنما كانوا يدعون من يأنسون إليه، ويرون في قلبه قبسًا من نور الفطرة الأصيلة.

واتخذ رسول الله ﷺ من دار الأرقم عند أصل الصفا أول معهد لتعليم المسلمين أمور دينهم، وإقرائهم ما ينزل عليه من آي القرآن المبين، ويستقبل فيها من يقبل على الإسلام يريد اعتناقه.

وكان رسول الله ﷺ دائب الحركة، يدعو إلى الله، لا يستحسر ولا يفتر، وكان يلم بالبيت الحرام كثيرًا، يطوف به متعبدًا إلى الله تعالى، والملأ من قريش قعود حول الكعبة، يسمرون في هجر وعبث.

وكانوا قد تسامعوا بدعوته، وصكت آذانَهم معالمُ هدايته، وعرفوا الكثير ممن اتبعه وآمن به، فلم يبادروه بإنكار، ولكنهم كانوا إذا رأوه يطوف بالبيت اكتفوا بالإشارة إليه إذا مر بهم في مجالسهم، يقولون: إن غلام بني عبدالمطلب ليُكلَّم من السماء، ولم يكن منهم إليه كبير أذى، ولا مناكرة.

وبهذه المسالمة التي كانت أثرًا من آثار الحكمة في

(٨) رجل جواظ: جاف غليظ.(المجلة)

الاستسرار بالدعوة، تمكنت بها الدعوة في زمن استسرارها من السير إلى القلوب والعقول، فدلف إلى حظيرتها في دار استخفائها عدد غير قليل من فتيان قريش وذوي بيوتاتها، والوافدين على مكة من غير أهلها، من صادقي الإيمان أقوياء العقيدة، الذين تخشى قريش في عتوها شجاعتهم وقوة بأسهم، فكان هؤلاء قوة للضعفاء والمستضعفين الذين آمنوا على حذر من قومهم أن يفتنوهم في دينهم.

أول صلاة قبل الفريضة العامة

يذكر رواة السيرة النبوية أن الله تعالى فرض على رسوله ﷺ صلاة، أول ما أوحى إليه، كما يؤخذ من حديث أسامة بن زيد، عن أبيه زيد بن حارثة، فكان ﷺ يصليها، ويعلمها أصحابه، وهم مستخفون بإيمانهم ودعوتهم إلى الله، فكان ﷺ إذا أراد أن يصلي ذهب إلى الشعاب ليصلي بعيدًا عن أعين أعداء الله المشركين، أعداء الحق، وكذلك كان أصحابه يفعلون.

قال أبو جعفر الطبري: وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلوا ذهبوا إلى الشعاب فاستخفوا من قومهم، فبينا سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب النبي ﷺ في شعب من شعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون، فناكروهم، وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فاقتتلوا، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بلحي

جمل فشجه[٩]، فكان أول دم أريق في الإسلام.

وذكر ابن إسحاق أن بعض أهل العلم حدثه أن الصلاة حين افترضت على رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو بأعلى مكة، فهمز له بعقبه في ناحية الوادي، فانفجرت منه عين فتوضأ جبريل ورسول الله ﷺ ينظر ليريه كيف الطهور للصلاة، ثم توضأ رسول الله ﷺ كما رأى جبريل يتوضأ، ثم قام جبريل فصلى به، وصلى رسول الله ﷺ بصلاته، ثم انصرف جبريل، فجاء رسول الله ﷺ خديجة فتوضأ لها ليريها كيف الطهور للصلاة، كما أراه جبريل، فتوضأت كما توضأ لها رسول الله ﷺ، ثم صلى بها رسول الله ﷺ كما صلى به جبريل فصلت بصلاته.

قال ابن سيد الناس في (العيون) بعد أن أورد رواية ابن إسحاق: كذا ذكره ابن إسحاق مقطوعًا، وقد وصله الحارث بن أسامة، فرواه بسنده إلى الزهري عن عروة عن أسامة، عن أبيه زيد بن حارثة، ثم قال صاحب (العيون) ورويناه من طريق ابن ماجه عن إبراهيم بن محمد الفريابي، عن حسان بن عبد الله، عن ابن لهيعة، عن عقيل عن الزهري بسنده بمعناه، قال: وقد روي عن البراء بن عازب، وابن عباس رضي الله عنهم وفي حديث ابن عباس: وكان ذلك أول من الفريضة[١٠].

وفي حديث عفيف الكندي الذي أخرجه صاحب (العيون)

(٩) لحي جمل أي عظمة جمل. وشجه جرحه.(المجلة)

(١٠) أي قبل الصلاة المفروضة.(المجلة)

من طريق ابن إسحاق، وهو مخرج في سيرته، قال عفيف: كان العباس بن عبد المطلب لي صديقًا، وكان يختلف إلى اليمن يشتري العطر، ويبيعه أيام الموسم، فبينما أنا عند العباس بمنى، فأتاه رجل مجتمع فتوضأ فأسبغ الوضوء، ثم قام يصلي، فخرجت امرأة فتوضأت، ثم قامت تصلي، ثم خرج غلام قد راهق، فتوضأ ثم قام إلى جنبه يصلي، فقلت: ويحك يا عباس: ما هذا الدين؟ قال: هذا دين محمد بن عبدالله ابن أخي، يزعم أن الله بعثه رسولاً، وهذا ابن أخي علي بن أبى طالب قد تابعه على دينه، وهذه امرأته خديجة قد تابعته على دينه. قال عفيف بعد أن أسلم ورسخ في الإسلام: يا ليتني كنت رابعًا.

وأخرج ابن إسحاق في سيرته أن رسول الله ﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفيًا من أبي طالب، ومن جميع أعمامه وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا كذلك، فمكثا ما شاء الله أن يمكثا.

أول دعوة أبي طالب إلى الإسلام:

ثم إن أبا طالب عثر عليهما يومًا وهما يصليان، فقال لرسول الله ﷺ: يا ابن أخى ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟ قال (أي عم؟ هذا دين الله، ودين ملائكته ورسله ودين أبينا إبراهيم، بعثني الله به رسولاً إلى العباد، وأنت أي عم أحق من

بذلت له النصيحة، ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجابني إليه، وأعانني عليه).

فقال أبو طالب: أي ابن أخي، إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي، وما كانوا عليه، ولكن لا يخلص إليك شيء تكرهه ما بقيت.

قال ابن إسحاق: إن أبا طالب قال لعلي: أي بني، ما هذا الدين الذي أنت عليه؟ فقال: يا أبت، آمنت برسول الله ﷺ وصدقت بما جاء به، وصليت معه لله، واتبعته، فقال له أبوه: أما إنه لم يدعك إلا إلى خير، فالزمه.

من آثار حكمة الاستسرار بالدعوة:

في هذه الرواية من الحقائق والمعاني ما ينبغي التنبيه عليه، لاستشفاف حكمته، وتبين أسبابه ودوافعه.

أولاً إن النبي ﷺ في مدة استسراره بدعوته، وتبليغ رسالته كان يستخفي من عامة قومه، من قرب منهم، ومن بعد، وكان يقصر دعوته على من يأنس إليه ويطمئن إلى استجابته، أو يأمنه على كتمان ما عرض عليه، ويضمن صمته عن التحدث بما أفضى به إليه.

وكان أقرب قرباه إليه في عصبة النسب أعمامه، ولم يُعْرف أنه ﷺ قصد إلى دعوة أحد منهم للإيمان برسالته في مدة استسراره بالدعوة إلى قبول رسالته واعتناق دينه.

وكان في طليعتهم والمقدم فيهم عمه صنو أبيه، أبو طالب الذي ورث زعامة بني هاشم بعد وفاة أبيه عبد المطلب،

والـذي انتقلت إليه كفالة ابن أخيه محمد بن عبدالله ﷺ وهو في مشرق طفولته، بعد أن فقد أباه وأمه وجده، فحدب عليه، وصبَّ به وأحبه حبًا شـديدًا(١١)، والتزمه فلم يفارقه في سـفر أو إقامة، وكان يؤثره على جميع أبنائه، حتى شب محمد ﷺ في كنف هذه الرعايـة الحانية، وبلغ مبلغ الرجال، فأثّله عمه أبو طالب(١٢) بتوجيهـه إلى الاتجار بمال خديجة بنت خويلد الأسدية، سيدة نساء قومها يومئذ ثم زوجه بها، وأمهرها له من خـاص ماله، وكان حب أبي طالب لابن أخيه محمد ﷺ يزداد وينمو، ووفاؤه بالحدب عليه ورعايته يتصاعد، ويسمو، حتى اختـار الله محمدًا نبيّا، وبعثه لعباده رسـولًا، فشَرِقتْ ببعثته غطاريـف الوثنية، وغُصت برسـالته حلاقيم رءوس الشـرك، وشنفت به زعامات العتو والطغيان في قريش، واستشرى إليه شـرهم، واشـتعلت في صدورهم نيران أحقادهـم، فقام دونه عمـه أبو طالـب، يدافع عنه، ويحمي حوزتـه، ويرد عنه، فلم يستطع أحلاس الشرك، وعبيد الوثنية أن ينالوا من محمد ﷺ نيلًا، حياة عمه أبي طالب، حتى إذا هلك أبو طالب امتدت إلى رسـول الله ﷺ حينئذ سفاهة السفهاء بالإيذاء، وسوء القول، وكان النبـي ﷺ يذكـر لعمـه هـذا الموقف منه ومـن دعوته ورسالته، فيقول: (ما نالت مني قريش شيئًا أكرهه حتى مات

(١١) صب به: مال إليه. (المجلة)

(١٢) أثلَّه: أعانه ليصبح له مال كثير.(المجلة)

أبـو طالب) وهذا القول من النبـي ﷺ يؤكد موقف عمه منه، حدبًا ورعاية وحماية.

ثانيًـا: إن أبـا طالب عاش ردحًا من الزمـن في بعثة النبي ﷺ، قريبًا من عشـر سـنين، وهو في هذه الفترة كما كان قبلهـا ظـلَّ على مـا كان عليه، حبًا لمحمـد ﷺ، ووفاء له وحدبًـا عليـه، وحمايـة لـه، وذودًا عنه، وهـو ﷺ يؤدي رسـالته، ويبلغها إلى من يسـتطيع إبلاغها إليه وأبو طالب على شركه ووثنيته، وهو أقرب قرابة محمد ﷺ إليه؛ لأنه أخـو عبد الله أبي محمد ﷺ لأمه وأبيـه، وهو ألصقهم به، وألزمهم لـه، وأعرفهم بمدخله ومخرجـه، فكان أعظمهم قيامًا دونه والذود عنـه، وأصدقهم عزيمة في التضحية من أجله، وأقواهم شكيمة في الوقوف إلى جانبه.

ومـع ذلـك كله لم يعـرف أن النبي ﷺ آثره على سـائر عمومته بدعوته إلى الإيمان برسالته مدة استسراره بدعوته.

وقـد مكث النبي ﷺ مستسـرّا بدعوتـه قريبًا من ثلاث سـنين، وهـذه الدعوة التي تقول هـذه الرواية إن النبي ﷺ توجـه بها إلى عمـه أبي طالب، ودعاه فيهـا إلى دينه، دين الله تعالى وملائكته ورسله ودين أبي العرب إبراهيم الخليل عليه السـلام، هي أول دعوة عرفـت أن النبي ﷺ دعا فيها عمه إلى الهدى ودين الحق، وبذل النصيحة.

وهـي على ذلك كانت أثـرًا من آثار لقـاء المصادفة، لم

تُستهدف بقصد بديّا، وإنما كانت ضرورة ساق إليها الاتفاق الذي لم يكن متوقعًا، كما تقتضيه الرواية.

وفي إجابة النبي ﷺ عن سؤال عمه: (ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟) لمحات من الإشفاق الرفيق، والرحمة الحانية، والحرص على اجتذاب قلب عمه إلى ساحة الإيمان، ليسلم وجهه لله تعالى ويخلع الأنداد، ويترك عبادة الأصنام، وشعائر الشرك والوثنية.

فقد دعاه النبي ﷺ إلى التصديق برسالته، وقبول هدى الله الذي بعثه به إلى عباده، بأسلوب جمع أحب ما يمكن أن يكون من طرائق الترغيب والإثارة العاطفية وإيقاظ العقل، من أجل ما اختص به أبو طالب من الحدب عليه في أوقات الشدة والأزمات، ليحرك في قلبه وعواطفه نوازع القربى، ويُلفتَه إلى مفخرة مفاخر العرب في التاريخ، بذكر منقبة الانتساب إلى إبراهيم خليل الله عليه السلام، فقد خصه النبي ﷺ بالذكر بعنوان أبوته للعرب، وخاصة قريشًا سادنة البيت الذي أقامه إبراهيم وابنه إسماعيل وجعله الله مثابة للناس وأمنًا لأهله والوافدين عليه، ومرتفقًا لعيش قريش ورزقها، ومتجرًا يهوي إليه الناس بما معهم من منافع يتبادلونها، ومحمدة وذكرًا صالحًا في دنيا التاريخ.

ورد أبو طالب على رسول الله ﷺ في هدوء يلفه خوفُ قالةِ الناس، وأبى أن يجيب إلى الإسلام، وأدركته حمية

الجاهلية وعصبية القومية، فقال: إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، ولم ينس أبو طالب مآثره مع ابن أخيه محمد ﷺ، ولم يكن ليجهل أبو طالب أن قومه سيعادون ابن أخيه إنكارًا لما جاء به من الهدى وينصبون له شواخص البغضاء والمقاومة على طريق سير رسالته، فواتته عصبيته الخاصة له في مواقفه السابقة فقال له: ولكن- أي مع عدم إجابتي لدعوتك وإقامتي على دين آبائي، مثل قومي- لا يُخْلَص إليك بشيء تكرهه ما بقيت، وقد وفى أبو طالب بوعده، واحتمل الشدائد والأزمات معرضًا نفسه وآله لأخطر المواقف مع قومه، دفاعًا عن محمد ﷺ.

الفهرس